الفصل الثاني
النشر الاجتماعي والموضوعات الأخرى

أ- صورة المجتمع الإسلامي في النشر.

ب- صورة المجتمع الصليبي في النشر.

جـ- الموضوعات الأخرى.

أ- صورة المجتمع الإسلامي

صوّر الناثرون مظاهر حياة المجتمع الإسلامي - آنذاك -، فتحدثوا عن عناصر السكان، وظروف معيشتهم، ووصفوا ما حل بالبلاد - أحياناً - من كوارث ومجاعات وزلازل، وما عاناه السكان من أهوالها، وصوَّروا بعض مظاهر الترف عند بعض الحكام والأغنياء، وأشادوا بعادات السكان الحميدة، وحاربوا العادات السيئة والمنكرات الشائعة، ووصفوا بعض الألعاب والرياضات ووسائل الترفيه، ونصحوا الرعاة والرعية، ودعوا إلى الالتزام بمذهب السنة والجماعة، والابتعاد عن البدع وعن المذاهب والعقائد الأخرى، وتحدثوا عن انتشار الزهد والتصوف، وعن الاعتقاد بالكرامات، وشيوع الحديث عن الرؤى والأحلام، وغيرذلك.

عناصر السكان:

شهد هذا العصر تمازجاً بين أجناس مختلفة في بلاد الشام ومصر، فقد انضم إلى سكان البلاد الأصليين من العرب كثير من الأتراك والأكراد، فضلاً عن الغزاة الفرنج الذين اغتصبوا أجزاء واسعة من بلاد الشام، فقد اعتمد الزنكيون كثيراً في توطيد ملكهم على أبناء جلدتهم الأتراك، فأسندوا إليهم إمارة الولايات، وقيادة الجيوش، والوظائف الكبرى، كما أسندوا بعض الوظائف للأكراد.

وقد كان للأتراك أثر واضح في الحياة العامة، فقد عرفوا بشدة البأس في القتال حتى قيل: «إن قنطاريات[1] الفرنج ليس لها إلاّ سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلاّ منهم»[2] وأشاد الكتّاب بحسن بلائهم في مواجهة الغزاة[3]، كما أشادوا أيضاً بشجاعة الجنود الأكراد الذين وقفوا يدافعون عن البلاد جنباً إلى جنب مع سكانها العرب[4]، فقد كان هذا العصر عصر الوحدة الإسلامية بين قطري الشام ومصر،

---

(١) جمع قنطارية: وهي نوع من الرماح يصنع من الخشب، يعرف باليونانية بهذا الاسم:
(Dozy : Supp. AuxD. Arab, Tome II P.42).

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٦٠.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢، ٧٣-٧٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٩٥-٩٩.

وكان «نور الدين محمود الأستاذ المباشر لصلاح الدين الأيوبي الذي جعل حلم الوحدة الإسلامية حقيقة واضحة»[١] بينهما. وقد كانت رابطة العقيدة الإسلامية هي التي تربط هؤلاء السكان برباط وثيق، إذ اختفت من النثر في هذا العصر فكرة الشعوبية، وفكرة تفضيل العرب على الأعاجم باستثناء أمثلة قليلة[٢]، منها ما كتبه ابن الأثير على لسان أحد مخدوميه مفتخراً على العجم عندما انهزم جلال الدين الخوارزمي[٣]، فقال: «.. ويكفي في غض لجام هذا العدو العجمي أن يسمع قبل أن يرى، ويسري إليه الرعب، فيأخذ في هربه بإدمان السرى، ويستدل على ذلك من نسبته في أنه يعجم عوده، وتهزم جنوده، ومن أين له ولرجاله صبر العرب[٤] في مواقف الجلاد، أو لهم مثل خيولهم التي من صفاتها أنها تسمى الجياد، أو لهم مثل سلاحهم في إرهاف نصوله، وبعد أطراف القنا من أصوله؟!»[٥].

وقد ضم المجتمع الإسلامي إلى جانب السكان المسلمين أهل الذمة، وهم المعاهدون من أهل الكتاب من النصارى واليهود، ولكل منهما مذاهب متعددة، وكانوا يعيشون مع المسلمين في مدنهم وقراهم، وقد يتجمعون - أحياناً - في أحياء أو قرى خاصة بهم[٦].

عامل الزَّنكيون والأيوبيون أهل الذمة معاملة طيبة، وحرص السلاطين والحكام على إعطائهم حقوقهم كاملة، ووقفوا منهم وقفة إنسانية نبيلة، فوفروا

---

(١) هنريت سابا: اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام: ص٣.

(٢) انظر رسائل ابن الأثير: ص٣٦، ٤٢، ٤٥-٤٦، ٥٢-٥٣، ٥٧، ٥٩ (تحقيق المقدسي).

(٣) هو السلطان جلال الدين منكبرتي ابن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي، تولى السلطنة الخوارزمية بعد وفاة أبيه سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، وكانت له حروب عديدة مع المغول والكرج والباطنية والأيوبيين، وقتل سنة ٦٢٨هـ (ابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص١٧٩، ١٨٦، ١٩٠، ٣٠٠، ٣٢٢ وغيرها، والنسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: ص٧١ وما بعدها).

(٤) لعل ابن الأثير كان يعتبر ملوك الأيوبيين الأكراد عرباً من ناحية الثقافة وليس من ناحية النسب.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص٤٢ (تحقيق المقدسي).

(٦) رحلة ابن جبير: ص٢١٧.

لهم حرية العبادة، وأسقطوا الضريبة عن الرهبان المتفرغين للعبادة، وعن الشيوخ العاجزين عن الكسب، ومن ذلك ما ورد في تقليد كتبه ضياء الدين بن الأثير على لسان السلطان الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ لأحد الأعيان بولاية مدينة دمشق، إذ يقول: « .... ومن الرعية الذين تحت يدك أهل الذمة، وهم قوم سكنوا بين أظهر المسلمين سكنى الإذلال، وبذلوا الجزية فعصموا بها مباح الدماء والأموال، فعليك بأن تملي عليهم ظل المعدلة، وتنزلهم حيث أنزلهم الله ورسوله من المنزلة، وأن تحفظ كلا منهم في نفسه وعرضه، ولا تحمله ثقلا يخف عليه حمل بعضه، وأن تحفظ عليه عهده من النقض إلاّ في سبب يحكم بنقضه، ومن إحسان السيرة فيهم ألاّ تطلب الجزية من راهب انقطع في صومعته، ولا من شيخ حال الضعف بينه وبين الانتفاع به كما حال بينه وبين منفعته...»[١].

وعلى الرغم من الحروب الطاحنة التي كانت مستعرة بين المسلمين والفرنج الغزاة في هذا العصر، إلا أنّ العلاقة بين المسلمين والنصارى من سكان البلاد الأصليين كانت طيبة بشكل عام، مما أثار دهشة ابن جبير فقال: «ومن العجيب أنّ النصارى المجاورين لجبل لبنان، إذا رأوا به من المنقطعين المسلمين جلبوا لهم القوت، وأحسنوا إليهم، ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله - عزَّ وجل - فتجب مشاركتهم»[٢].

ولكن بعض سلاطين الأيوبيين كانوا يحترزون من أهل الذمة بسبب اشتداد الحروب مع الفرنجة في عهدهم، فيطلبون منهم أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم حتى تسهل معرفتهم، فكان لا بُدَّ لهم من الغيار بأن «يشد النصراني عقدة زناره، ويصفر اليهودي أعلى إزاره»[٣].

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٦١.

(٢) رحلة ابن جبير: ص٢٥٩.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٧.

وكانت المرأة تشارك – أحياناً – في الحياة العامة، فكانت هناك نساء مشهورات أنشأن المساجد والمدارس والرباطات، وفي ذلك يقول ابن جبير: « . . . ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف »(١).

ومما يسترعي الانتباه احترام الأمير أسامة بن منقذ للنساء « فقد ألف كتاباً خاصاً بأعمال النساء الكبيرة سماه « أخبار النساء »(٢)، وكرّس في كتاب « الاعتبار » حقولاً طويلة للإشادة بأعمال البطولة التي قام بها البعض منهن »(٣).

فقد وصف جدته لأبيه بالصلاح والتقوى، وتأدية الفرائض على أحسن طريقة، فقال: « . . . . ولقد كانت هذه العجوز –رحمها الله– من صالحي المسلمين من الدين والدقة والصوم والصلاة على أجمل طريقة . . . . »، ووصفها – أيضاً – بالحكمة وسداد الرأي فقد نصحته بعدم المخاطرة بنفسه وسلاحه في صيد الأسود ليثير إعجاب عمه – أمير شيزر – لأن هذه الأعمال كانت تأتي عليه بنتيجة عكسية فتزيد عمه منه جفوة ونفوراً ، وخوفاً على مستقبل أولاده منه، فعقّب على نصيحتها بعد أن أثبتت الأيام صدقها« . . . . فعلمت أنها – رحمها الله – نصحتني في قولها، وصدقتني، ولعمري إنهن أمهات الرجال »(٤).

وكان الشرف والحفاظ على العرض – في نظر المرأة المسلمة – أغلى عليها من الحياة نفسها، فعندما هاجم الإسماعيلية شيزر ألبست أمّ أسامة أخته خفها وإزارها، وأجلستها على روشن في البيت يشرف على الوادي، حتى إذا وصل

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٤٨ . وانظر أيضاً: المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي « متعلمة ومعلمة، لعبد الجليل عبد المهدي: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني : العدد: ٣٨: السنة الرابعة عشرة: ص٣٥–٦٩ .

(٢) فيليب حتي : مقدمة كتاب الاعتبار : ص ك .

(٣) فيليب حتي : مقدمة كتاب الاعتبار : ص ض . وانظر الاعتبار :ص١١٨–١١٩ ، ١٢٣–١٣٠ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار : ص١٢٦ .

اليها الباطنيون رمتها إلى الوادي، فتراها قد ماتت، ولا تراها «مع الفلاحين والحلاجين مأسورة»[1].

وتلك فتاة مسلمة اسمها رفول، سباها الفرنج في إحدى غزواتهم لشيزر، فالتاع أبوها لذلك، ولكنها «رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها فغرقت، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف، فسكنت لوعة أبيها....»[2].

وكثر الرقيق وسبي الحروب كثرة واضحة في بلاد الشام، ولا سيما بعد أن غنم المسلمون أعداداً كبيرة منذ أن بدأ صلاح الدين الأيوبي بالانقضاض على الفرنج والانتصار عليهم، فعندما هاجم نابلس امتلأت «أيدي المسلمين سبياً لا يحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة إلى السامري....»[3]، وقد بلغ ثمن الأسير في دمشق بعد معركة حطين ثلاثة دنانير، وكان يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة ببيعة واحدة[4]، ومن أعجب ما شاهده ابن جبير في رحلته: «أنّ قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين»[5]، ولم يقتصر الأسر والرق على الفرنج في هذا العصر، بل كان الفرنج ينتصرون – أحياناً – فيقتلون أعدادا من المسلمين، ويأسرون أعداداً أخرى فيسترقونهم، وقد قيّض الله لأسرى المسلمين بعض السلاطين والأثرياء الذين كانوا يفتدونهم بأموالهم ويخلصونهم من أيدي أعدائهم[6].

ظروف المعيشة:

كان المسلمون في بلاد الشام ومصر قبل استيلاء الزنكيين على الحكم فيهما يعانون من استبداد الحكام وأتباعهم، ومن كثرة الضرائب المفروضة عليهم، ومن

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٢٤–١٢٥.

(٢) المصدر السابق: ص١٥٠.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٢٧٢.

(٤) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٨٢.

(٥) رحلة ابن جبير: ص٢٧١.

(٦) المصدر السابق: ص٢٤٥.

اضطراب حبل الأمن، وكثرة اللصوص وقطاع الطرق، فضلاً عمّا كانت تخلفه الحروب المتصلة مع الإفرنج من نكبات وتعطيل للأعمال من فقر وعوز.

ويحدثنا أسامة بن منقذ في عدد من قصصه عن اللصوص والعيارين الذين تفرقوا في البلاد يروّعون المسافرين، ويخيفون التجار. وكثرت سرقة الخيل في شمال بلاد الشام، واشتهر بذلك لصوص محترفون(١).

وكانت حالة الأعراب في الصحراء - آنذاك - بائسة، ومن ذلك وصف أسامة لحال بني أبّي الطائيين الذين كانوا يقطنون في الجفر إذ قال إنهم جهلة، بعيدون عن الفهم الحقيقي للإسلام، «قد يبست جلودهم على عظامهم»(٢) من شدة الفقر. ووصفه - أيضاً - لبعض الأعراب في وادي موسى الذين حاولوا الفتك به وبجماعة من أصحابه من أجل سلبهم، مع أنهم كانوا في مهمة جهادية ضد الإفرنج(٣).

وكان الحشاشون والباطنيون مصدر قلق للمسلمين في شمال بلاد الشام، فكانوا يغيرون عليهم في مدنهم وحصونهم للقتل والسلب والنهب والاحتلال(٤).

وبعد أن استولى الزنكيون على الحكم، ضبطوا الأمور، واستتب الأمن، وأرسوا قواعد الحق والعدل بين الناس، وأسقطوا عنهم بعض الضرائب والمكوس التي كانت تثقل كواهلهم، فلهجت ألسنة الأدباء بالثناء عليهم، ومن ذلك قول أبي الحسن بن الأثير في الثناء على السلطان نور الدين محمود «... وأمّا عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، بل أطلقها - رحمه الله - جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه»(٥).

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٤٣-٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢.

(٣) المصدر السابق: ص٢٧-٢٨.

(٤) المصدر السابق: ص١١٦-١١٧، ١٢٤-١٢٥.

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٤.

وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي الحكم في بلاد الشام ومصر، ضبط أمورهما، وأقام العدل فيهما، وأسقط الضرائب والمكوس فيهما[١]، فازدهرت البلاد. وحاول بعض سلاطين بني أيوب السير على نهجه في التخفيف عن الرعية فأسقطوا المكوس، واكتفوا بجباية الأموال من الأبواب المباحة فقط، فها هو السلطان الأفضل بن صلاح الدين يأمر في توقيع[٢] له كتبه ابن الأثير بإسقاط المكوس، مجسداً اهتمام الحاكم برعيته، وحرصه على التخفيف عنها، طلباً لرضى الله، فيقول: « .... ولما عرضت علينا المكوس بدمشق المحروسة وجدناها تخفف من موازين الأعمال، وإن كانت تثقل موازين الأموال، وعلمنا أنها لا تربو عند الله، وإن ربت عند الناس....، وقد أمرنا بمحو رسمه، وإزالة اسمه.... ولا منّة لنا على الرعايا برفع ظلامة إن رفعت كان لنا أجرها، وإن تركت كان علينا وزرها....»[٣].

ويأمر الأفضل في تقليد سلطاني آخر لأحد الولاة كتبه ابن الأثير بمراعاة أحوال الفقراء، وإيصال الصدقات المخصصة لهم في بداية كل شهر دون إبطاء أو تأخير تخفيفاً لمعاناتهم[٤].

وحرص بعضهم – أيضاً – على اختيار الولاة الأكفياء، ووضعوا لهم دستوراً إسلامياً رفيعاً لإقامة العدل بين الناس يعيد إلى الأذهان عهود خلفائنا العظام إلى ولاتهم كعهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى أبي موسى الأشعري[٥]، فهذا ابن الأثير يكتب في تقليد سلطاني لأحد الأعيان بولاية دمشق مذكراً إياه بأن الرعية قد أصبحت أمانة في عنقه أمام الله – جلَّ وعلا – فعليه أن يؤدي حقوقها على أحسن وجه، فيقول: « .... وأقررنا ذلك كله وديعة في يدك،

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٢٢-٥٢٣.

(٢) التوقيع – آنذاك – يقابل ما نسميه اليوم المرسوم الملكي او الجمهوري.

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص٩١-٩٢.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص١٦١-١٦٢.

(٥) المبرد: الكامل في اللغة والأدب: الجزء الاول :ص٩.

وجعلنا الله عليك من شهودها، فقم بما توليته قياما يحسن أثره، ويحمد خبره، ولا يتعصب ورده ولا صدره»[1]، ثم يأمره في عبارات وجيزة «تمثل أرقى ما وصلت إليه قواعد العدالة في زماننا هذا»[2] بإبقاء بابه مفتوحا لشكاوى الناس وظلاماتهم، وإقامة العدل بين الخصوم، ودرء الحد بالشبهات حفاظاً على دماء الناس وأرواحهم، دون التخلي عن الحزم في معاقبة المذنبين، فيقول:

«... وأول ما نأمرك به أن تجعل بابك مسلوكاً، وحجابك متروكاً، وأن تجلس للخصوم جلوساً لا يشان بملل ولاعجل، وتستمع إلى أقوالهم استماعاً يرويهم من العلل بعد النهل... وملاك ذلك كله أن تسوي في الحكم بين بعيدك وقريبك، وبغيضك وحبيبك، حتى لا يمتاز ذوو الفاقة من ذوي اليسار، ولا الأجانب عن ذوي الشركة في لحمة النجار... وإذا رفعت إليك الظلامات فنقب فيها عن الباطن والظاهر، ولا تقض للأول حتى تسمع من الآخر، فكثيراً ما يصرّى الضرع في مثل ذلك حتى يظن حافلاً، ويقال هذا صاحب حق، ثم لا يلبث حقه أن يعود باطلاً.... وعندك في البلد الذي وليته قاض هو أعلم منك بتنفيذ الأحكام، وتفصيل الحلال من الحرام، وبه - أيضاً - من حملة الشريعة من تستضيء بسراجه، وتحتج عندنا وعند الله باحتجاجه، وتستخرج الخفايا الغامضة عليك باستخراجه، وقد جعل الله الإنسان من أشرف خلقه الذين كرمهم بفضله، ولم يجعله كغيره من الحيوان المعرض لذبحه وقتله، وقطرة الدم المراقة ظلما لا تزال تستغيث على مريقها، وهي والكفر سيان في رفع المغفرة وانسداد طريقها... ومتى لاحت لك شبهة فاستمسك بها في درء الحدود، وكن بالناس رؤوفا رحيما....»[3].

وعلى الرغم من الإصلاحات الاجتماعية الكبيرة، والتقدم العمراني والازدهار الاقتصادي، والانتصارات الكبيرة على الإفرنج في هذا العصر، إلاّ أنّ بلاد الشام

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٨.

(٢) هلال ناجي: بحوث ندوة أبناء الأثير: ص٤٧٨.

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٥٩-١٦١.

ومصر عانت -أحياناً- من الكوارث والزلازل والمجاعات، فوصفها الناثرون وتحدثوا عن أهوالها وآثارها. فقد وصف العماد القحط الذي حل بالشام نتيجة انحباس الأمطار فقال: « . . فإنها (بلاد الشام) أشفت من الجدب، واشتكت من الكرب، وأخلفت بها أخلاف السحب، ولم تبك عليها عين الودق[1]. ولا خفق لإخفاقها قلب البرق، ولا بكت سماؤها بالأنواء، ولا ضحكت أرضها بالنوار، ولا اهتزت بها أعطاف الأزهار، ولا استدرت لرواضع بناتها أطباء الوابل المدرار، ولا لاح في صحاريها سنا السنابل، ولا زمجرت في نواحيها رواعد الهواضب الحوامل. . . »[2].

ووصف عبد اللطيف البغدادي القحط الذي حل بمصر والمجاعة الكبرى التي تلته سنة ٥٩٧هـ نتيجة انخفاض منسوب نهر النيل، فقال: «ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد، وأشغر أهلها البلاد، وهرجوا من خوف الجوع، وضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن، وتفرقوا في البلاد أيادي سبأ ومزقوا كل ممزق، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم، واشتد بهم الجوع، ووقع فيهم الموت، وعند نزول الشمس الحمل[3] وبسيء الهواء[4]، ووقع المرض والموتان، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم، فكثير ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل. . .، ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم. . . »[5].

---

(١) الودق: المطر كله شديده وهينه (اللسان: مادة: ودق).

(٢) العماد الكاتب: البرق الشامي: ج٣: ص٧١.

(٣) أي برج الحمل.

(٤) أصيب بالوباء.

(٥) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار: ص٨٥.

وازدادت أحوال مصر سوءاً في السنة التالية فوصف ذلك قائلاً: « . . ودخلت هذه السنة والأحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزيد إلى زهاء نصفها، فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره أصلا، وقل خطف الأطعمة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة . . . . وألف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي، وحكي لي أنه كان بمصر تسعمائة منسج للحصر فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف . . . »(١).

وتعرضت بلاد الشام في هذا العصر بين الفينة والأخرى إلى زلازل عديدة، وكان بعضها مدمراً، ففي سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٦م) ضربت الزلازل بلاد الشام عدة مرات، وفي سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) حدث زلزال عنيف، عاث في حلب وحماة وحمص ومعرة النعمان وشمال بلاد الشام خراباً وتدميراً ويكفي للدلالة على هول هذه الزلزلة أن نذكر قول أبي شامة: « . . بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق [المكتب] لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب!! »(٢).

أما شيزر فقد بلغ الدمار فيها ذروته فتهدمت قلعتها تماماً، ومن المصادفات العجيبة أن أميرها تاج الدولة ناصر الدين بن منقذ (-٥٥٢هـ/١١٥٧م) كان قد أولم وليمة كبيرة بمناسبة ختان أحد أولاده حضرها بنو منقذ المقيمون بشيزر جميعاً، وبينما هم يلهون ويحتفلون ابتهاجاً بهذه المناسبة، إذ زلزت الارض زلزالها، فهدمت شيزر فوق رؤوس هؤلاء المحتفلين، ولم تنج منهم سوى امرأة

---

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار: ص٩٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص٢٦٤.

واحدة[1]، فأخنى الدهر على آل منقذ، وعفت حوادثه على أثارهم ورسومهم.

وكانت هذه الفاجعة من أعمق الحوادث أثراً في نفس أسامة بن منقذ، فبكى قومه البائدين أحرَّ بكاء ورثاهم أصدق رثاء[2].

وفي سنة ٥٦٥هـ ضربت الزلازل أكثر بلاد الشام ومصر، فقال ابن الأثير في وصفها: « . . . إلاّ أنّ أشدّها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء. . . . »[3] ولم يخفف من روع الأدباء وألمهم لهذه الكوارث سوى ما حل -أيضاً- بأعدائهم الإفرنج من دمار رهيب وهلاك، فقد سقطت الكنائس فوق رؤوسهم، إذ زلزلت الارض بهم عندما كانوا يحتفلون بمناسبة عيد لهم، فوصف العماد الكاتب ذلك شامتا، فقال: « . . . . وما سكنت النفس من رعبها، وتسلت القلوب عن كربها إلاّ بما دهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض والأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق، فإنها وافقت يوم عيدهم، فهم في الكنائس، فأصبحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون، ﴿ **فخرَّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾»[4].

وفي سنة ٥٩٨هـ ضربت الزلازل مصر والشام «طولاً وعرضاً، وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر، وهلك من الناس خلق عظيم، وأمم لا تحصى». وقد وصف عبد اللطيف البغدادي إحدى هذه الزلازل الرهيبة بمصر قائلا: « . . واتفق سحرة يوم الاثنين. . . أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس، وهبوا من مضاجعهم مدهوشين، وضجوا إلى الله – سبحانه – ولبثت مدة طويلة، وكانت حركتها كالغربلة

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ٢٦٢.

(٢) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج٢: ص١١٥-١١٩وغيرها، والديوان: ص٣٥٤ – ٣٦٠، ٣٤٧ – ٣٥٠.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٦٧.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٦٨. والآية رقم (٢٦) من سورة النحل.

أو كخفق جناح الطير، وانقضّت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الأبنية، واصطفقت الأبواب، وصرصرت السقوف والأخشاب، وتداعى من الأبنية ما كان واهياً، أو مشرفاً عالياً. . . . »[1].

وعزف بعض السلاطين والملوك والأمراء - آنذاك- عن الترف، وعن مباهج الحياة، وأقبلوا على الآخرة، وعلى جهاد الإفرنج مثل نور الدين محمود[2]، وصلاح الدين الأيوبي[3].

غير أن آخرين مالوا إلى الترف والبذخ، ولا سيّما في حفلات الزواج، والمناسبات السارة[4]، والأعياد، فعندما تزوج الملك الظاهر غازي[5] ابنة عمه ضيفة خاتون، جهزها والدها الملك العادل بقماش وآلات وأنواع من المصوغات حملها « خمسون بغلا ومائة بختي وثلاثمائة جمل. . . . »[6]، وقدم لها زوجها الملك الظاهر « خمسة عقود جوهر قيمتها مائة وخمسون ألف درهم، وعصابة مجوهرة ليس لها نظير، وعشر قلائد من العنبر المذهب، وخمساً غير مذهبة، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة. . . »[7].

واستخدم بعض الأثرياء آنية من الذهب والفضة ولم يؤدوا زكاتها، وقد استنكر السلطان الأفضل هذه المعصية في تقليد كتبه ضياء الدين بن الأثير فقال: « . . ويلتحق بهذه المعصية صوغ الذهب والفضة آنية يمنع منها حق الصدقات، وهو حق يقاتل مانعه، ويعصى في استعمالها أمر الله، وهو حد من

---

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار: ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١١-١٢.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٢١-٢٧.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٧٥، ٥٨٠، ج٢: ص٢٧.

(٥) الملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف الذي ملك حلب ثلاثين عاماً، وتوفي سنة ٦١٣هـ. (ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣، ص٢٣٧-٢٤٣).

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣: ٢١٣-٢١٤.

(٧) المصدر السابق: ج٣: ص٢١٤.

حدوده يعاقب عاصيه، ويثاب طائعه»[1].

وشاع عند بعض الأغنياء – أيضاً – لبس الرجال للذهب والحرير، مخالفين بذلك أوامر الله – تعالى– وقد وصف ابن الأثير هذه العادة فقال منددا بها « . . . وقد استمر في الناس عوائد تهاونوا باستمرارها، ولم ينظروا إلى ثقل أوزارها، فمن ذلك لبس الذهب والحرير الذي لم يلبسه إلاّ من عدم عند الله خلاقاً، وإن قيل: إنه شعار للغنى، فلم يزد صاحبه من الحسنات إلاّ إملاقاً، وللبس عباءة مع التقوى أحسن في العيون شعاراً، وأعظم في الصدور وقاراً»[2].

وروى أسامة بن منقذ أنه كان بمصر يركب على حصان سرجه موشىً بالذهب[3].

وكان بعض الأثرياء يطيل ذيوله، ويجرها خلفه خيلاء ومباهاة «فالمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبراً»[4]. مما حدا بالسلطان الأفضل أن يندد بذلك في تقليد سلطاني كتبه ابن الأثير قائلاً: «ومما يغلظ نكيره إطالة الذيول للاجترار والمباهاة لما فيها من عنجهية التيه والاستكبار، ولن يخرق صاحبها الأرض بإعجابه، ولايبلغ طول الجبال بإطالة ثيابه[5]، قال النبي (ﷺ): إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من جرَّ ثوبه خيلاء»[6].

ومن مظاهر الترف عند النساء – آنذاك – ارتداء المترفات منهن الملابس الشفافة الواصفة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: « . . . ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٣–٣٩٤ .

(٢) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٣.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢٩.

(٤) رحلة ابن جبير: ص٢٦٩.

(٥) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**ولا تمشِ في الارض مرحا، إنك لن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال طولا**﴾ سورة الإسراء. الآية (٣٧)

(٦) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٤.

الإرفاه والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في الأرض في الأوساط والأطراف، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لم يخطر للشيطان في حساب، وتلك من لباس الشهرة الذي لا يستر منه إسبال مرط[1] ولا إدناء جلباب».

ومال بعض الأثرياء من الرجال إلى اقتناء القينات المغنيات اللواتي - كما يقول ابن الأثير - في تقليد سلطاني «يلعبن بالعقول لعبهن بالأسماع، ويغنين الشيطان بغنائهن عن بث الجنود والأشياع»[2].

العادات والأخلاق:

امتزجت في هذا العصر عادات أهل البلاد الأصليين من العرب بعادات الوافدين اليهم من الأتراك والأكراد وغيرهم.

ومن هذه العادات إكرام أهل بلاد الشام للغرباء والفقراء، وقد أشاد ابن جبير بذلك قائلا: «... ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء، ولا سيما أهل باديتها، فإنك تجد من بدار إلى بر الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لها»، وكانت مرافق الغرباء فيها كثيرة «ولا سيما لحفاظ كتاب الله - عزَّ وجل - والمنتمين للطلب»[3].

وكان أهل دمشق يعطلون في يوم السبت جميع أعمالهم وأشغالهم، ويخرجون إلى الميدان الأخضر، «فقوم يلعبون بالصوالج، وآخرون يغنون السماع، وكل أحد فيما مال إليه هواه، ولا مثرب ولا منتقد»[4].

وكان بعض الناس يخرجون - في بعض المناسبات - إلى المقامات والمشاهد التي كانوا يعتقدون بقدسيتها فيزورونها ويتبركون بها، فقد خرج نور الدين محمود سنة

---

(١) المرط: بالكسر كساء من صوف أو خز أو كتان وقيل هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط (اللسان: مادة: مرط).

(٢) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٤-٣٩٥.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٢٥٨.

(٤) ابن سعيد: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: ص١٤٣.

٥٦٥هـ «إلى داريا[١] فأعاد عمارة جامعها، وتبرك بضريح أبي سليمان الداراني[٢]، وعمّر مشهده، وأعاد إلى الحالة الحالية مسجده»[٣].

وكان المسلمون في بلاد الشام ومصر يحتفلون في مناسبات دينية معينة كعيدي الفطر والأضحى، وكانوا يهتمون بإقامة الموالد النبوية، وكان السلاطين والملوك يبذلون في سبيل إحياء هذه الاعياد أموالاً كثيرة، ويمدون فيه الأسمطة للفقراء والمساكين[٤].

وكانوا يحتفلون في مواسم الحج فينزل الأمراء في مواكب، ويحتشد الناس لاستقبال الحجاج، وتعظيم شأنهم والتبرك بهم، ويصف ابن جبير ذلك قائلا: «ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم، ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق هذا العام الذي هو عام ثمانين[٥]، خرج الناس لتلقيهم: الجم الغفير، نساء ورجالا، يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة»[٦].

ومن عاداتهم – أيضاً – أنهم يقفون في يوم عرفة بجوامعهم بعد صلاة العصر كاشفي الرؤوس داعين ربهم متضرعين إليه إلى أن تغيب الشمس، فينصرفوا باكين لحرمانهم من المشاركة في الحج، ومتوسلين إلى الله – جلَّ وعلا – أن ييسر لهم

---

(١) من قرى دمشق بالغوطة (معجم البلدان: ج٢: ص٤٣١).

(٢) هو عبد الرحمن بن عطية الزاهد، ويقال أصله من واسط وقد توفي بداريا في سنة ٢٣٥هـ، ودفن بها (معجم البلدان: ج٢: ص٤٣١-٤٣٢).

(٣) الفتح بن علي البنداري: سنا البرق الشامي: ص٤٦.

(٤) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية: ص ٢٢٨، والفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٥٢.

(٥) أي سنة ٥٨٠هـ.

(٦) رحلة ابن جبير: ص٢٥٩.

ذلك، وقد وصف ابن جبير هذا المشهد قائلاً: « . . . إنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة إثر صلاة العصر، يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين ربهم التماساً لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله - عزَّ وجل- وحجيج بيته الحرام بعرفات، فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله - عزَّ وجل - في أن يوصلهم إليها، ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك »[1]. ولهم عادة مستحبة في المصافحة فهم يصافح بعضهم بعضا إثر صلاة الجماعة، ولا سيما إثر صلاة الصبح، وصلاة العصر، وإذا سلّم الإمام وفرغ من الدعاء، أقبلوا عليه بالمصافحة، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة. ومن عادتهم عند مخاطبة بعضهم لبعض المبالغة في تعظيم المخاطب وتسويده وامتثال الخدمة له، ويصف ابن جبير ذلك متعجبا « ومخاطبة أهل هذه الجهات بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد، وامتثال الخدمة، وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحدٌ منهم الآخر مسلما يقول: جاء المملوك، أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب ». أمّا سلامهم فهو إيماء للركوع والسجود كما تفعل قينات النساء، ورقيق الإماء، عندما يعرضن للبيع، ويقدم ابن جبير صورة ساخرة لذلك فيقول: « وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً، وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبا لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه »[2].

كما سخر ابن جبير - أيضاً - من مشيتهم وأيديهم إلى الخلف، قابضين بالواحدة على الأخرى، فقال: « ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون وأيديهم إلى الخلف، قابضين بالواحدة على

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٦٤، ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق: ص٢٦٨.

الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً»(١).

وكانت لهم طريقة خاصة في تشييع الموتى يصفها ابن جبير مندهشا فيقول: «ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام جنائزهم بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية، وتلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً، ويرفعون أصواتهم بها فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة، فلا بُدَّ لكل جنازة من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها، إلاّ أن يكون الميت من أئمة الجامع، أو من سدنته، فإن الحالة المميزة له في ذلك، أنْ يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد....»(٢).

وكانوا يعقدون مجالس للتعزية بموتاهم، ويلبسون – أحياناً – الملابس السوداء والزرقاء حداداً عليهم، ويندبونهم وينوحون عليهم، كما كان يفعل أهل الجاهلية، واتخذوا من الأعياد مواسم لزيارة قبور موتاهم، وتقديم الطعام صدقة عن أرواحهم وطلباً لرحمة الله لهم. كما أنّ بعض النساء كانت تضرب الخيام على قبور أعزائهن، وقد ندد ابن الأثير في تقليد سلطاني لصاحب الحسبة بهذه العادات المخالفة للسنة المطهرة قائلا: «ومما خولفت فيه السنة عقد مجالس التعازي لحضور الناس، وإظهار شعار الأسود والأزرق من اللباس، والتشبه بالجاهلية في النوح والندب، ومجاوزة دمع العين وخشوع القلب إلى الإعلان بإسخاط الرب، وقد تواطأ النساء على ضرب الخيام على القبور، وجعل الأعياد مواسم لاجتماع الزائر والمزور، فصارت المآتم بينهم ولائم، والمنادب عندهم مآدب....»(٣).

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٦٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٦٧.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٧.

وسائل التسلية والترفيه:

كان الملوك والأمراء والأثرياء يمارسون بعض الألعاب والرياضات المعروفة – آنذاك – مثل سباق الخيل والرماية، وطعن الحلق، ورمي القبق[١]، وغيرها[٢].

وكان اللعب بالكرة من الهوايات الأثيرة لدى نور الدين محمود[٣]، وصلاح الدين الأيوبي[٤]. وشاعت لعبة الشطرنج، ووصفها عدد من الأدباء، وممن برع في وصفها وقدمها في لوحة فنية رائعة صيّرت هذه اللعبة إلى ساحة قتال ضياء الدين ابن الأثير إذ يقول: « . . . ومما حضرنا بعد ذلك أنه جيء بلعبة عجماء للناس بها غرام، وهي جديدة لديهم على قدم الأيام، ومما توصف به أنها حلال وأخوها حرام، وقد وضعت على أرض استوت طولاً وعرضاً، وسوّيت جوانبها فلا رفعاً ولا خفضاً، وبها فريقان من خيل ورجل قد اختلفا شعاراً، كما اختلفا نجاراً، وسواء لديهم الحرب ليلاً ونهاراً، وما منهم إلاّ من يحمل على قرنه حمل الشجاع، ولا يفر لخوف القتل، ولا يمل لتعب القراع، ومن شأنهم أن يقاتلوا بلا سلاح، ولا يرضوا من الغنيمة إلاّ بالأرواح ، فقتلاهم لا توارى في القبور، ولا تترك طعاماً للثعالب ولا للنسور، لكن لها في كل ساعة قتل ونشور، ومن أعجب ما فيهم أنهم يركضون من غير عثار، ولا إثارة غبار، وكلما أخمدت لهم نار حرب، عادوا إلى إشعال تلك النار »[٥].

ووصف ابن الأثير – أيضاً – في رسالة طردية له قسي البندق فقال: « . . . ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلاّ حين تشد، ولا تنطلق في شأنها إلاّ حين تعطف

---

(١) وهي أن تنصب خشبة عالية في أعلاها دائرة من الخشب – أيضاً – فترمي الرماة بسهامها جوف الدائرة لكي تمر من داخلها لتصيب هدفاً محدداً (أحمد رمضان: المجتمع الاسلامي في بلاد الشام: ص٢٩٣).

(٢) انظر الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٣١.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص ٢٥٢، ج١: ق٢: ص٥٨٠.

(٤) المصدر السابق: ج١: ق١: ص٢٥٢

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٤٨-١٤٩.

وترد، ولها نثار أحكم تصويرها، وصحّح تدويرها، فهي في لونها صندلية[1] الإهاب، وكأنما صيغت لقوتها من حجر لا من تراب، فإذا قذفتها إلى الأطيار، قيل: ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد، ولا يرى حينئذ إلاّ قتيل، ولكن بالمثقل الذي لا يجب في مثلة قود[2]، فهي كافلة من تلك الأطيار بقبض نفوسها، منزلة لها من جو السماء على أم رؤوسها»[3].

وكان الصيد من الهوايات الأثيرة لدى الكثيرين من السلاطين والأمراء الزنكيين والأيوبيين وأتباعهم، وقد اهتمَّ الناثرون بوصف رحلات الصيد ووصف أحداثها، فقد كتب الأمير يغمر بن عيسى (ابن العكبري)[4] رسالة طويلة، ضمنها أشعاراً كثيرة «وذكر فيها ما يتضمن معاشرة الإخوان وتعب الزمان، والحث على اغتنام الفرص، ووصف الصيد والقنص وشرب المدام، وتقلب الأيام...»[5]. وتحدث فيها - أيضاً - عن رحلة صيد طويلة مع صحبه، ووصف فيها الجياد الأصائل، وجوارح الصيد من فهود وكلاب وبزاة وشواهين، ثم وصف ما اجتازوه في رحلتهم هذه من رياض وقفار، وما رأوه فيها من مشاهد الصيد والظباء والسماني والحجل والكراكي والدراج وغيرها، ومنها وصفه لصيد ظبية وطلاها، في مشهد حي مؤثر تطغى فيه غريزة الأمومة لدى الظبية على حب الحياة، فتحاول فيه الظبية افتداء وليدها بنفسها، إذ قال: «.... فاعترضتنا شاة وطلاها وهي بعينها تراعيه، ومن أطيب النبات ترعيه، فاستترنا منها، وتخفينا عنها... فلما عاينتنا وقفت، ولأغنّها استوقفت، وهاج بها القلق، وبان عليها

---

(١) منسوبة إلى الصندل: خشب أحمر ومنه الأصفر، وقيل الصندل شجر طيب الرائحة. (اللسان: مادة صندل).

(٢) القود: القصاص (اللسان: مادة: قود).

(٣) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٥٤-٥٥.

(٤) من مولدي الاتراك في دمشق، ومن أمرائها المشهورين، وأدبائها المعروفين، توفي وهو شاب، ويذكر العماد الكاتب انه توفي سنة ٥٠٨هـ او سنة ٥٠٩هـ، ثم يناقض هذا الكلام بقوله إنه لقيه بدمشق مع أنّ العماد الكاتب حلَّ بدمشق سنة ٥٦٢هـ (الخريدة: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٥٤).

(٥) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٥٤.

الفرق، فتشاغلنا عنها حتى قرَّ قرارها، وسكن نفارها...، وانعكفت على مرعاها، ظناً أنه يخفى مرآها، ليتم ما قدر في الأزل، وتستوفي ما بقي لها من الرزق والأجل، ثم عدنا فيه راغبين، وللفتك بها راغنين[1]، فقمصت ملياً[2]، وخلصت نجياً، وطلبت مخرجاً، فلم تجد معرجاً، فقصدت الجانب الخالي نحو الفهاد، وهو لها ولخشفها بالمرصاد، فلما تمكن من الإرسال، أخذ برقع الفهدة بلا استعجال، وأرسلها فشدت، وقويت واشتدت، فاشفقت الغزالة على خشفها، فرضيت دونه بحتفها، إذ كان غير عارف بالهرب، ولا قادر على التعب، ونظرت مداها، فقصرت خطاها، وتثاقلت في عدوها، وتكاسلت عن نزوها لتطمع الفهدة في صيدها، وتحظى بسلامة وليدها... فاستقامت الفهدة على العنز، فلم ينجها سرعة العدو والجمز، فتلتها للجبين، وأخذت منها بالوتين، وشغلتها بحينها عن الحنين، وانفرد الخشف كالحزين، يتفلّت، ويتلفّت ويتأسف ويتخوف، فأدركتنا عليه الشفقة، وملكتنا له الرقة، وعزمنا أن نخلي سبيلها، ولا نفرد عنها سليلها، فتراكضنا إليها، وترامينا عليها، فوجدنا الفهاد قد ذكاها، وأباح الفهدة حماها...»[3].

كما أفرد أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» باباً كاملاً[4] وصف فيه مشاهداته للصيد والجوارح بشيزر مع والده وأقاربه، فقد كان لبني منقذ في شيزر «متصيدان: متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي البلد، ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في الأزوار[5] غربي البلد»[6]. وكان والد أسامة من أكثر الناس ولعاً بالصيد، مما دعاه إلى اقتناء حيوانات الصيد

---

(١) رغن إليه وأرغن: مال إليه (اللسان: مادة: رغن).

(٢) قمص الفرس وغيره: رفع يديه معا، وعجن برجليه (اللسان: مادة: قمص).

(٣) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٧١-٣٧٢.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٩١-٢٢٦.

(٥) الزارة: هي الأجمة (اللسان: مادة: زأر).

(٦) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٩٩.

وجوارحه من كلاب وفهود وصقور، واستخدام من يقوم بتغذيتها وتدريبها وعلاجها[1]. وكان كثيراً ما يخرج مصطحبا أسامة وأخوته الثلاثة، ومعهم مماليكهم وأعوانهم من خبراء الصيد فإذا وصلوا المتصيد رتبوا أمورهم كترتيب الحرب، وقضوا يومهم في القفز والصيد، حتى إذا حلَّ الظلام عادوا بصيدهم إلى منازلهم[2].

وقد وصف أسامة -أيضاً- عددا من مشاهد الصيد في الموصل مع عماد الدين زنكي الذي «كان من أرمى الناس، فكان إذا دنا منه الغزال رماه فنراه (أي أسامة وصحبه) كأنه قد عثر فيقع ويذبح»، ووصف الصيد مع شهاب الدين محمود، ووزيره معين الدين أنر بدمشق، ومع الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي في مصر، ومع نور الدين محمود في دمشق كذلك، ومع فخر الدين قرا أرسلان في ديار بكر فقد شهد الصيد «سبعين سنة»، وحضر قتال الأسود في مواقف كثيرة وقتل -- كما يقول - عدة منها لم يشاركه في قتلها أحد.

وقد مكنته مشاهداته الكثيرة للصيد من معرفة بعض طبائع الحيوان، إذ اكتشف أن «الأسود كالناس فيها الشجاع، وفيها الجبان» «وأن الأسد إذا خرج من موضع لا بُدَّ له من الرجوع اليه»، وأدرك الفرق بين الفهد والنمر، ولاحظ أن الحبارى إذا اقترب منها الصقر «استقبلته بذنبها، فإذا دنا منها سلحت عليه فبلت ريشه، وملأت عينيه وطارت».

ولكنه شارك أبناء عصره في بعض الإعتقادات الخاطئة مثل قوله: «ومن خواص النمر أنه إذا جرح الإنسان وبالت عليه فأرة مات، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر»[3].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٩٩-٢٠١.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٣) المصدر السابق: ١٩٣، ١٩٣ - ١٩٤، ١٩٤ - ١٩٥، ١٩٦ - ١٩٧، ٢٢٦، ١٤٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١١، ٢١٧.

محاربة العادات السيئة والمنكرات الشائعة:

شاعت في هذا العصر بعض العادات السيئة ، وانتشرت بعض المنكرات – أحياناً –، فجأر المصلحون بالشكوى محذرين من عواقبها، وداعين أولي الامر إلى محاربتها، وقد حاول بعض السلاطين والملوك محاربة هذه الأدواء الاجتماعية، ومعاقبة مرتكبيها، فقد كان عماد الدين زنكي يحارب الزنا، وكان شديد الغيرة على نساء الأجناد، وعندما بلغه أن عامله على قلعة جعبر تعرَّض للحرم، أمر حاجبه صلاح الدين الغسياني صاحب حماة، أن يعاقبه بقطع ذكره، وقلع عينيه، ثم بصلبه ليكون ذلك عبرة للناس جميعا[1].

وكان نور الدين محمود أكثر تمسكاً بالدين من أبيه، فأمر بتحريم الخمر في جميع أنحاء البلاد، ومنع إدخالها، وكان يحد شاربها الحد الشرعي، ولا يستثني من الناس أحدا[2].

وكان صلاح الدين يعاقب الزناة، ومعاقري الخمر، والزنادقة. كما أمر السلطان الأفضل بن صلاح الدين والي دمشق في تقليد كتبه ضياء الدين بن الاثير سنة ٥٨٩هـ بمحاربة ما شاع من المنكرات – آنذاك – ومنها:

الرشوة التي تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، والتي شاعت في الناس حتى صارت من أعظم الآفات التي تفتك بالمجتمع فقال: « . . . وها هنا كبيرة من أعظم الكبائر، وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر، وذاك أن ولاة السوء، قد ألفوا تناول الرشوة التي تغيّر حكماً، وتختم على القلوب ختماً، وسمّاه الله سحتاً وإثماً. . . ، فاحص على هؤلاء (أي المرتشين) الأنفاس عددا، واسلك من بين أيديهم ومن خلفهم رصدا، وكن كالطائر الحذر الذي يظن كل شيء حجراً ويدا».

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج١: ص١٠٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١١.

وقد أمر بحد شارب الخمر، ومنع صنعها، وإدخالها إلى البلاد، وإتلاف ما ضبط منها، ومصادرة الدواب التي تحملها، ليكون ذلك ردعاً لشاربيها ومسوّقيها، فقال: « ... والمهم عندنا حد شارب الخمر ،فإن الناس قد تهافتوا على شربها وإدمانها، وجاهروا في افتعالها وعصيانها، ولم يردعهم الحد عليها عن تردد مكانها، ونحن نأمرك أن تقتلع شرّها من أصله، وتسد على شيطانها أبواب سبله، ولا يتم ذلك إلاّ أن تجتهد في منع حلها وتحريم جلها، وإراقة زقاقها ودنانها، واستهلاك الدواب الحاملة لها باستهلاك أثمانها، وأن تتعهد قيناتها بالنفي والاشتهار، وتنحي على آلاتها بقطع الأوتار، وكسر كل ما كان من دف أو مزمار، واستعن على أمرك هذا بكل محتسب يتولى الأمر بالمعروف، وبالصلحاء من رجال الله الذين ينظرون بنوره من وراء السجوف، ويعملون له لا لأمر مرجو ولا لأمر مخوف، ويرجو حينئذ أن يزول هذا الأمر وإن كان عضالا، وإذا نظر الله إلى أمرنا في صدق النية كفى المؤمنين قتالا»(١).

ونهى بعض السلاطين عن التبذل في الحمامات، ولا سيما تبذل بعض النساء اللواتي أفرطن في عدم الاستتار... وفي ذلك يقول ابن الأثير في تقليد سلطاني: «ومما هو أشد نكيراً أمر الحمامات، فإن الناس قد أصرّوا بها على الإجهار، وترك الاستتار، والتهاون بأمر العورات التي لصاحبها اللعنة، وله سوء الدار، والنساء في هذا المقام أشد تهالكاً من الرجال وقد ابتذلن أنفسهن حتى أفرطن في فاحشة الابتذال...»(٢).

وحارب بعض السلاطين -- أيضاً -- ما شاع من المحرمات في المعاملات المالية والتجارية، فقد أمر السلطان الأفضل في تقليد كتبه ابن الأثير لمنصب الحسبة بمحاربة الربا الذي كثر أهله -- آنذاك -- وتظاهر به فاعلوه، وأفتى بعض فساق الفقهاء بتأويله، وشبهة تحليله، فتعامل به من أعمى الله بصيرته، ومحق كسبه،

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٦١.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩٤.

فقال: « . . . وها هنا عظيمة عضيهة[1]، وفاحشة يفقه لها من ليست نفسه بفقيهة، وهي الربا، فإنه قد كثر آكله، وتظاهر به فاعله، وقال فسّاق الفقهاء بتأويله وتوصلوا إلى شبهة تحليله، ولا يتسارع إلى ذلك إلاّ من أعمى الله قلبه، ومحق كسبه . . . ونحن نأمرك أن تشمّر في هذا الأمر تشميراً يرهبه الناس، ولا تدع رباً حتى تضعه . . . »[2].

ونهى في هذا التقليد عن تطفيف التجار للميزان، فهؤلاء يعبدون الدرهم والدينار، فيهجمون على هذه المعصية مع معرفتهم بحرمتها، فأمر بتقويم اعوجاجهم قائلاً: « . . . وبه (السوق) قوم أوسعوا عيون الموازين غمزاً، وألسنتها همزاً ولمزاً، وأصبح الدرهم والدينار عندهم بمنزلة الصنمين، اللات والعزى، ولا يرى منهم إلاّ من الحرص مفاض على ثيابه، وقد جمع بين المعرفة بالحرام والهجوم على ارتكابه، فعدّل ميل هؤلاء تعديلا، وتخولهم على مرور الأيام تخويلا . . . »[3].

ونهى عن الخلابة والنجش[4]، وتلقّي الركبان، وبيع الحاضر للبادي، وتنفيق السلعة باليمين الكاذبة التي نهى عنها رسول الله (ﷺ)، واحتكار الأقوات وغيرها، فقال: « . . . . وكل هذه المحظورات التي وردت الأخبار النبوية ببيانها، والنهي عن تورد مكانها، فمن قارف شيئا جاهلاً بتحريمه فقوّمه بالتعليم، واهده إلى الصراط المستقيم، ومن عرف ما اقترف فأذقه حرّ التأديب، قبل أن يذاق غداً حر التعذيب، وأعلمه أن الأرزاق بيد الله – تعالى – لا ينقصها عجز القاعد، ولا يزيدها حرص الكادح، وقد ينقلب الجاهد فيها بصفقة الخاسر، والوادع بصفقة الرابح، ومن سنة الله – تعالى – أن ينّمي الحلال

---

(١) العضيهة: الإفك والبهتان (اللسان: مادة: عضه).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٩١.

(٣) المصدر السابق: ق٢: ص٣٩١.

(٤) الخلابة: المخادعة: (اللسان: مادة: خلب)، والنجش: أن تمدح سلعة غيرك أو تذمها لئلا تنفق عنه، وأن تزايد في البيع ليقع غيرك، وليس من حاجتك (اللسان: مادة: نجش).

وإن كان يسيرا، ويمحق الحرام وإن كان كثيرا . . . » .

ونهى -أيضاً- عن التسعير التزاماً بأمر رسول الله (ﷺ) قائلا : « . . وأما التسعير فإنه وإن آثره القاطنون، وحكم به القاسطون، وقيل : إن في ذلك للفقير تيسير العسير، فليس لأحد أن يكون يد الله في حفظ ما رفع، وبذل ما منع، فقف أنت حيث أوقفك حكم الحق، ودع ما يعنّ لك من مصلحة الخلق، ولا تكن ممن اتّبع الرأي والنظر، وترك الآية والخبر، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه، ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله، ﴿ **ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ »[1] .

كما نهى عن احتكار الأغنياء لأقوات الفقراء لأن من واجبهم الرفق بالفقراء ومساعدتهم بدلا من التضييق عليهم، ومزاحمتهم في أرزاقهم، فقال : « . . . ومن الناس من آتاه الله مالاً فبث في الأسواق جنود ذهبه وورقه، واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله، ووسعه الكيل من ذوات وسقه[2]، فأصبح فقراء بلده في ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق ، فليمنع هؤلاء من أن يجعلوا رزق الله محتكراً، ومعاش عباده محتجراً، وليؤمروا بأن يتراحموا، ولا يتزاحموا، وأن يأخذ الغني منهم بقدر الكفاف، ويترك للفقير ما يعينه على الإسعاف . . . »[3] .

نصح الرعاة والرعية :

وحرص الكّتاب على نصح الحكام بحسن معاملة رعاياهم امتثالاً لما ورد في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، واقتداء بالسلف الصالح من ولاة أمور المسلمين، فألف أسامة بن منقذ في ذلك كتاباً سماه « نصيحة الرعاة »[4] . كما ألف كتاباً

---

(١) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر : ق٢ : ص٣٩٣، والآية رقم (٨٢) من سورة النساء .

(٢) الوسق : مكيلة معلومة أو حمل بعير، وهو ستون صاعاً بصاع النبي (ﷺ)، أو الحمل بشكل عام (اللسان : مادة : وسق) .

(٣) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر : ق٢ : ص٣٩٢-٣٩٣ .

(٤) أسامة بن منقذ : مختصر مناقب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : ورقة (١) .

آخر سمّاه «ردع الظالم، ورد المظالم» جمع فيه شيئاً مما قيل في الدعوة إلى الكف عن الظلم، وردع الظالمين عن غيهم[١].

واهتم الكتّاب – أيضاً – بالإشادة بمناقب خلفاء المسلمين وعظمائهم لتكون هذه المناقب سبلاً يسلكها الحكام من بعدهم، فألف أسامة بن منقذ في ذلك كتاب «فضائل الخلفاء الراشدين»[٢]، واختصر كتابي «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»[٣]، و«مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز»[٤] لعبد الرحمن بن الجوزي. كما كتبوا كثيراً عن فضائل حكام المسلمين الذين أبلوا بلاءً حسناً في الحروب مع الفرنج مثل عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي مثل كتابي «البرق الشامي» و«الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد الكاتب، وكتاب «النوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية» لابن شداد، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة» لأبي شامة المقدسي.

وحرص الكتّاب – أيضاً – على نصيحة الرعية، وبثّ الأخلاق الفاضلة والمثل العليا في المجتمع، فألف أسامة بن منقذ في ذلك كتاب «لباب الآداب»، ولعل هذا الكتاب من أجلّ الكتب عند العرب لما اشتمل عليه من مختارات أدبية، حفلت بالقيم السامية، والمثل العليا عند العرب والمسلمين وغيرهم، وقد صيغت بأساليب أدبية رفيعة[٥]، وألف جعفر بن شمس الخلافة الأفضلي (-٦٢٢هـ)[٦]، في ذلك كتاب «الآداب النافعة»[٧].

---

(١) أسامة بن منقذ: لباب الآداب: ص٣١١.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٣.

(٣) اسامة بن منقذ: مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي: ورقة: ١.

(٤) أسامة بن منقذ: مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: ورقة: ١.

(٥) طبع كتاب لباب الآداب بالقاهرة سنة ١٩٣٥ بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

(٦) هو مجد الملك أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة الأفضلي، أديب وشاعر ولد سنة ٥٤٣هـ وتوفي سنة ٦٢٢هـ (ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ج٥: ص١٠٠).

(٧) طبع كتاب «الآداب النافعة بالألفاظ الجامعة» بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٩هـ، وبمطبعة محمد أمين الخانجي بالقاهرة سنة ١٣٤٩هـ.

العقيدة والتيارات المذهبية:

كان المذهب السني في هذا العصر سائداً في بلاد الشام، وظل المذهب الفاطمي غالباً على مصر حتى سقطت الدولة الفاطمية، فتحولت مصر إلى المذهب السني(١).

ووجدت إلى جانب المذهب السني في مصر والشام، فرق شيعية متعددة، مثل الإمامية والزيدية والإسماعيلية، والنصيرية وغيرها كثير(٢).

وقد حرص معظم السلاطين في تقاليدهم الرسمية على إظهار عزمهم على إمضاء الشريعة الإسلامية في ممالكهم، إمّا التزاماً حقيقياً بالدين من بعضهم، وإما إرضاءً للناس من بعضهم الآخر، ومن ذلك قول ضياء الدين بن الأثير في تقليد سلطاني: « . . ومن أهم ما نقرر بناءه، ونقدم عناءه، ونصلح به الزمن وأبناءه، أن نمضي أحكام الشريعة المطهرة على ما قررته في تعريف ما عرفته، وتنكير ما نكّرته »(٣).

وكان كثير من المسلمين قد هجروا السنة المطهرة واتبعوا البدع والمحدثات، وانقسموا حول دينهم فرقا وشيعاً، فحرص سلاطين بني أيوب على محاربة هذه البدع لإبقاء الدين قائما على أصوله الصحيحة امتثالاً لأوامر الله – تعالى – ورسوله (ﷺ)، وها هو ضياء الدين بن الاثير يطلب بلسان السلطان الأفضل في تقليد إلى صاحب الحسبة، أن يبدأ أولاً بالنظر في العقائد، وأن يقر أهل السنة والجماعة على عقيدتهم، وأن يحارب أصحاب البدع، فيقول: « . . . واعلم أن الناس قد أماتوا سنناً، وأحيوا بدعاً وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعاً . . .

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٢-٥٠٩.

(٢) رحلة ابن جبير: ص٢٥٢.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٨٦.

فابدأ أولاً بالنظر في العقائد واهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية[1] الذي هو سبيل واحد، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا، وقالوا: ربنا الله ثم استقاموا، ومن عداهم شعب دانوا أدياناً، وعبدوا من الأهواء أوثانا، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا».

ثم يعدد ابن الأثير في هذا التقليد بعض الفئات المبتدعة ومنها:

الفلاسفة الذين شوهوا الشرائع بأفكارهم - كما يقول - ودنسوا علومها بجهالتهم، فلا يسمع لهم قول، ولا يقبل منهم صرف ولا عدل، وليكن قتلهم على رؤوس الأشهاد، ويجب أن تستأصل شأفة كتبهم بالتمزيق والتحريق، لأنها «سموم ناقعة، لا علوم نافعة، وأفاع ملففة، لا أقوال مؤلفة».

والرافضة «التي هي لما رفعه الله خافضة، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلاّ اسمه، ولا من الإسلام إلاّ رسمه، وإذا نقب عن مذهبهم، وجد على العصبية موضوعاً، ولغير ما شرعه الله ورسوله مشروعاً، وذبّوا عن علي - كرَّم الله وجهه - فأسلموه، وأخروه إذ قدموه، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها، وأوّلوها على ما أوّلوها، فتبع الآخر منهم الأول على غمة، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة»[2].

والقدرية: وهم الذين تحدثوا في القدر، وقالوا فيه بمخالفة نص الخبر، فهم ليسوا في شيء من ربقة الإسلام، وإن تنسكوا بمداومة الصلاة والصيام، لأنهم ماثلوا بين الله والعبد، والضياء والظلمة، «وعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن

---

(١) روي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار». قيل يا رسول الله: من هم؟ قال «الجماعة» (سنن ابن ماجه: ج٢: ص١٣٢٢: الحديث رقم ٣٩٩٢، وانظر مسند الإمام أحمد: ج٣: ص١٤٥، وسنن أبي داود: ج٤: ص١٩٨: الحديث رقم ٤٥٩٧، وسنن الترمذي: ج٤: ص١٣٥. الحديث رقم ٢٧٧٩).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٨٩.

تخزى، فليقابل جمعها بالتكسير، واسمها بالتصغير، ولتنقل إلى ثقل الحدود عن خفة التعزير، ومن كان منها ذا مكانة نابهة فليهبط، أو شهادة عادلة فليسقط».

والمشبّهة والمجسّمة، والقائلون بحدوث القرآن القديم، والمفرقون فيه بين المعنى والخطّ، وبين الشكل والنقط، «وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم، وعميت بصائرهم، وعظمت عند الله جرائمهم».

وعلاج هؤلاء أخذهم «بالتوبة التي تطهر أهلها، وتجب ما قبلها... فإن أبت هذه الطوائف إلاّ إصرارا، ولم يزدهم دعاؤك إلاّ فراراً فاعلم أن الله قد طبع على قلوبهم طبعاً، وألحقهم بالذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكره وكانوا لا يستطيعون سمعاً، فخذهم عند ذلك بحد الجلد، فان لم ينجع فبحد ذوات الحد، فإن هذه أمراض عمى لا ترجى لها الإفاقة، ولا تبرئ منها إلاّ الدماء المراقة»[1].

هذا من ناحية أصول العقيدة، أمّا من ناحية الفروع والعبادات، فقد حرص معظم السلاطين على إقامة الشعائر الدينية، فأمروا ولاتهم وعمالهم بدعوة المسلمين إلى تأديتها، وأوّل ذلك الصلوات الخمس المفروضة، والحفاظ على صلاة الجماعة والجمعة، وفي ذلك يقول ابن الأثير في تقليد سلطاني لأحد الولاة: «... واذا فرغنا من الوصية بالأصول التي هي للدين ملاك، فلنتبعها بالفروع التي هي له مساك: وأول ذلك الصلاة، وهي في مباني الإسلام الخمس أوكد خمسه، وآخر ما وصى بها رسول الله (ﷺ) عند مفارقة نفسه... ولا عذر في تركها لأحد من الناس... ومرهم بالاجتماع لها في المساجد، ونادِ فيهم بفضيلة صلاة الجماعة على الواحد، وراقبهم عند أوقات الآذان في الاسواق التي هي معركة الشيطان، فمن شغل بتثمير مكسبه، ولها عنها بالإقبال على لهوه ولعبه، فخذه بالآلة العمرية التي تضع من قدره، وتذيقه وبال أمره... ومن مهمات الصلاة يوم الجمعة الذي هو في الأيام، بمنزلة الأعياد في الأعوام، وفيه الساعة المخصوصة

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٨٨-٣٨٩.

بالدعاء المجاب، التي ما صادفها عبد إلاّ ظفر بالطلاب...»، كما دعوا إلى تأدية الصلوات التي تؤدى في مواسم محددة من العام مثل صلاة التراويح في شهر رمضان، وصلاة الرغائب في أول جمعة من شهر رجب، وإحياء ليلة النصف من شعبان، وفي ذلك يقول ابن الأثير في التقليد نفسه: «... وفي الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة كالتراويح في شهر رمضان، والرغائب في أول جمعة من رجب، وليلة النصف من شعبان، فلتملأ المساجد في هذه المواسم التي تكثر فيها شهادات الأقلام، في كتب الطاعات ومحو الآثام....»[1].

الزهد والتصوف:

صوّر الكتاب ظاهرة الزهد في الحياة في هذا العصر، وقد أدّت أهوال الحروب الصليبية وويلاتها، والزلازل والأوبئة والمجاعات التي تعرضت لها بلاد الشام ومصر -أحياناً- وما نتج عنها من فجائع، وما أثارته في النفوس من خوف إلى اتجاه كثير من الناس إلى الزهد، فوصف الأدباء غفلة الناس في هذه الدنيا، واطمئنانهم إليها مع أنها سريعة التقلب من حال السرور إلى حال الحزن.... وفي ذلك يقول القاضي الفاضل: «... نشكو إلى الله دنيا لا نحن نتركها ولا نحن ندركها:

غدارة بالناس غرارة قريبة العرس من المأتم

وليس لحوادثها ونوائبها قرن إلاّ التقوى...»[2].

ويقول ابن الأثير -أيضاً-: «.. والناس في الدنيا أبناء الساعة الراهنة، وكما أنّ النفوس ليست فيها بقاطنة، فكذلك الأحوال ليست فيها بقاطنة، ولهذا كانت المآتم بها كالأعراس يتفرق ندي جمعها، فهذه تنسى ما مضى من لذة سرورها، وهذه تنسى ما مضى من ألم فجعها، ولا شبيه على ذلك إلاّ الأحلام التي يتلاشى خيالها عاجلاً، وتجعل اليقظة حقها باطلاً، وما ينبغي -حينئذ- أن

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٨٩-٣٩٠.

(٢) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص١٥٣.

يفرح بها مقبلة، ولا يؤسى عليها مدبرة، وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تره. . . . »[1].

وممن اشتهر من الزاهدين في هذا العصر الشيخ الواعظ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا ويوسف بن محمد الجُماهري[2] وابن منجّم المعري[3]، وعبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي[4] وغيرهم.

ولم يشتط جُلّ الزهاد في زهدهم في القرن السادس بل كان هذا الزهد متفقاً مع الشريعة الإسلامية وبعيداً عن الأفكار الفلسفية، وقائماً على أساس من التقوى والورع، والبعد عن مباهج الدنيا وزخارفها.

وازدهر التصوف في هذا العصر، ولقي كل تشجيع من معظم السلاطين، وقد أُثر عن نور الدين محمود أنه كان مهتماً بالصوفية فبنى لهم الخوانق والربط في أنحاء البلاد، وكان يقربهم من مجالسه، ويتواضع لهم، ويصلهم بعطائه، وإدراراته حتى أصبحت ربطهم «قصوراً مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر».

ووصف ابن جبير مكاناً لهم يعرف بالقصر، فقال: «وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل منها إشراقاً، وهو من البلد بنصف ميل، له بستان عظيم يتصل به، وكان متنزهاً لأحد ملوك الأتراك، فيقال: إنه كان فيه إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٦٣-١٦٤.

(٢) هو يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي الجماهري، نسبة إلى جبل بعلبك، وقد توفي بدمشق سنة ٥٥٨هـ وله كتاب «الارتجال في أسماء الرجال» (حاجي خليفة: كشف الظنون: ج١: ص٦١، وخير الدين الزركلي: الأعلام: ج٨: ص٢٤٧).

(٣) هو الشيخ الواعظ شمس الدين عبدالرحمن بن المنجم المعري، توفي بدمشق سنة ٥٦٠هـ (الخريدة: قسم شعراء الشام: ج٢: ص٩٢).

(٤) ولد سنة ٥٤١هـ وتوفي سنة ٦١٥هـ (ذيل طبقات الحنابلة: ج٢: ص٣٣).

من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر، فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه، ووقفه برسم الصوفية مؤبداً لهم....»[1].

وعجب ابن جبير كل العجب من حال الصوفية في بلاد الشام عندما زارها في عهد صلاح الدين، فوصفهم بقوله: «وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقاً. وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً»[2].

ووصف أسامة بن منقذ رباطاً للصوفية وذكر أحوالهم وعجب من سكينتهم وخشوعهم، وأبدى سروره بذلك، لأنه لم يطلع من قبل على حياتهم، وطريقتهم في التصوف، فقال: «... فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضي طويل فدخلناه، وأنا أظن أن ما فيه أحد، وإذا فيه نحو من مائة سجادة، وعلى كل سجادة رجل من الصوفية عليهم السكينة والخشوع عليهم ظاهر، فسرني ما رأيت منهم وحمدت الله – عزَّ وجل – إذ رأيت في المسلمين من هو أكثر اجتهادا من أولئك القسوس، ولم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية في دارهم، ولا عرفت طريقتهم»[3].

وكان الناس يعتقدون بصلاح أرباب التصوف، ويثقون باستجابة أدعيتهم، ويتبركون بما يهدونهم إياه من ألبسة وهدايا، وينسبون إليهم الكرامات وقد يبالغون في ذلك كثيراً، ومن ذلك ما كتبه ضياء الدين بن الأثير عن السلطان الأفضل علي إلى رجل من كبار الصالحين المجاورين بمكة جواباً على كتابه، وقد أهدى إليه خرقة

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٣١.

(٢) المصدر السابق: ص٢٥٦-٢٥٧.

(٣) أسامة بن منقذ: العصا: ص٣٢٧.

التصوف ومصلى، فقد اتخذ من تلك الخرقة جنة من شياطين الجن والإنس، واتخذ من المصلى مرآة لقلبه، وسبباً إلى مقامات ربه، بل إن بإمكانه أن يمشي بها فوق الماء، وأن يصافح عليها ملائكة السماء، وأن يسرى عليها بكرامة مرسلها... وكتبه أرواح للقلوب وأدعيته جنود، وألطاف الله لها أمداد... فقال: « ... وصل ما شرف به من خرقة التصوف التي فازت بمصافحة جسده، والمصلى التي فازت بفضيلة تهجده، وهما (مَنحاهُ)[1] بركة وشرفاً، وخيراً موثقاً. أمّا الخرقة فقد اتخذها الخادم جنة من طائف الشيطان ووساوسه، وسلاحاً يلقى به عدو الدين يوم بأسه... وأما المصلى فقد اتخذها مرآة لقلبه، وسبباً إلى مقامات ربه، وقد ناجاه منها أثر المجلس في سجوده، وموضع قيامه، إنها مما يمشى بها على الماء، ويصافح عليها ملائكة السماء، فالكرامات بادية من طلعتها، ولو شاء الخادم لأسرى عليها...، ولهما أخوان يحلان محلهما في لطف الموقع، وشرف الموضع ، وهما كتب المجلس وأدعيته فإنهما نور على نور، وسور على سور.... فإن كتب المجلس أرواح والقلوب لها أجساد، وأدعيته جنود وألطاف الله لها أمداد...»[2].

وقد بقي هذا التصوف السني القائم على التمسك بالكتاب والسنة، والذي يعني المبالغة في الزهد والبعد عن الدنيا وزخارفها، والعمل للآخرة، سائداً حتى أواخر القرن السادس الهجري، حيث ظهر إلى جانبه تصوف فلسفي متأثر بالديانات الأخرى، والفلسفات الإنسانية المختلفة من يونانية وهندية وفارسية وصابئية، وقد تحول التصوف عند أنصار هذا الاتجاه إلى معرفة إشراقية لا معرفة دينية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة، وكان زعيم هذا الاتجاه الفيلسوف السهروردي[3] الذي يرى أنَّ الله – جلَّ وعلا – نور الأنوار « ومصدر

---

(١) توجد كلمة غير واضحة في المخطوطة: ولعلها بمعنى (منحاه).

(٢) رسائل ابن الاثير :ص١٤٨ (تحقيق نوري القيسي، وهلال ناجي).

(٣) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، الملقب بشهاب الدين السهروردي الحكيم الذي أمر صلاح الدين بقتله، فقتل بحلب سنة ٥٨٧هـ بسبب اتهامه بانحلال العقيدة وتعطيل الفرائض (معجم الأدباء: ج١٩: ص٣١٤-٣٢٠، ورسائل ابن الأثير: ص٢٨٠-٢٨١ (تحقيق المقدسي).

جميع الكائنات، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي، والعقول المفارقة ليست إلاّ وحدات من هذه الأنوار تحرث الأفلاك وتشرف على نطاقها »[1] وقد صور في أقواله فناءه بهذا النور الذي قطعه عن كل ما حوله[2]، وقد أدى ذلك إلى اتهامه بالزندقة من قبل العلماء والفقهاء، فأمر صلاح الدين الأيوبي بقتله وفي ذلك يقول ضياء الدين بن الأثير: « . . فكل أفعالها (أي دولة صلاح الدين) صالحة، فلا يقال فيها وأنا منّا الصالحون . . . . ومن أحسنها فعلاً إحياء الشريعة الإسلامية بقتل الزنديق الذي نبغ آنفا (يعني السهروردي)، ومرَّ بالناس هاتفاً، واختطف العقول بمكائد إفكه فظلَّ لها خاطفاً، وكان يتنقل في البلاد يبغي دولة لإظهار ما يبطنه، والاستقرار في الذروة التي تحصنه، ومع إعواز ذلك عليه فإنه تمادى في غروره، ولج في عتوه ونفوره، وظن أنه الدجال المنذر بظهوره، وقد ساقه الله من بأس مولانا إلى ضريحه، وقبض نفسه بيده لا بيد مسيحه، وذلك فتح يسد به مطلع الإلحاد، وتقمع به كلمته أن تسري على لسان أو تودع في فؤاد . . . . »[3].

ثم مثل ابن عربي[4] اتجاه التصوف في بلاد الشام ومصر في النصف الاول من القرن السابع الهجري ، وقد تأثر ابن عربي بمؤثرين: إسلامي يتلخص في الكتاب والسنة، والنظرات الصوفية السابقة، وآراء المتكلمين، وغير إسلامي: ينبع من الفلسفات والثقافات الأجنبية من يونانية وهندية وفارسية وغيرها، فكانت

---

(١) عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية في الإسلام: ص٤٤٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ص٦٤٥ .

(٣) رسائل ابن الأثير: ص٢٨٠-٢٨١ (تحقيق المقدسي) .

(٤) أبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المعروف بابن عربي، ولد في مرسية بجنوب الأندلس سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) ودرس علوم القرآن، والفقه بالأندلس، وأكثر من التطواف في مدنها، ثم ارتحل إلى المشرق فزار الحجاز واليمن والعراق والشام، ثم استقر بدمشق حتى توفي سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، وهو شاعر وصوفي وفيلسوف، وله كتب ومجموعات شعرية منها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وترجمان الأشواق، والذخائر والأعلاق، والديوان الأكبر (المقري: نفح الطيب: ج٢: ص٣٦١-٣٨٤، والعبر: ج٥: ص١٥٨-١٥٩) .

تتردد على خياله شطحات صوفية، وأفكار فلسفية لحصيلته الثقافية المتعددة الروافد[1].

واشتهر في القرن السابع الهجري -أيضاً- متصوفة عديدون منهم الشيخ علي الحريري (-٦٤٥هـ) الذي أفتى بقتله جماعة من علماء المسلمين، وسفه الكتاب طريقته، وفي ذلك يقول أبو شامة: « ... وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة، والتهاون بها، من إظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، وانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق، وساروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار، ويجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان، فترك الاحتجار على أحد فيما يفعله، وترك الصلوات، وكثرة النفقات، فأضلَّ خلقاً كثيراً، وأفسد جماً غفيراً، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين، ثم أراح الله منه...»[2].

وكان بعض الكتاب يعرّضون -أحياناً- بالصوفية وطريقتهم، لأنه غلب عليهم العجز والكسل فتركوا العمل من أجل كسب معيشتهم، وانقطعوا إلى العبادة في المساجد، يأكلون وينامون، وفي ذلك يقول الوهراني في منامة له: « ... فلما انتهى (أي النبيﷺ) إلى شاطىء المشرعة، وقف عندها، فتقدمت إليه الصوفية من كل مكان، وعلى أيديهم الأمشاط وأخلة الأسنان، وقدموها بين يديه، فقال (ﷺ): من هؤلاء؟! فقيل له: هؤلاء قوم من أمتك، غلب العجز والكسل على طباعهم، فتركوا المعايش، وانقطعوا إلى المساجد يأكلون وينامون، فقال: فبماذا كانوا ينفعون الناس، ويعينون بني آدم، فقيل له: والله ولا بشيء البتة، ولا كانوا إلاّ كمثل شجر الخروع في البستان، يشرب الماء ويضيق المكان، فساق ولم يلتفت إليهم...»[3].

---

(١) علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي: ص٢٩٦-٣٠١.

(٢) أبو شامة: ذيل الروضتين: ص١٨٠.

(٣) منامات الوهراني: ص٤٨-٤٩.

الاعتقاد بالكرامات، وشيوع الحديث عن الرؤى والأحلام:

أسهم التصوف في شيوع الاعتقاد بالكرامات والخوارق عند الناس، كما أن الأهوال التي عانى منها المسلمون خلال الحروب الصليبية الرهيبة، قد هيأتهم من الناحية النفسية لرؤية كثير من الأحلام والرؤى، وللاعتقاد بتحققها حتى شاع الحديث عنها في أدب هذا العصر، فألف أسامة بن منقذ في ذلك كتاباً سماه «النوم والأحلام» وقد وصفه بقوله: «وقد أوردت فيه ذكر النوم والأحلام، وما قيل فيها، وفي أوقات الرؤيا، وفي أقوال العلماء واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من أقوال العرب، ووسعت الشرح، وأشبعت فيه المعنى»(١).

كما أفرد أسامة -أيضاً- في كتابه «الاعتبار» باباً كاملاً تحدث فيه عن الرؤى والأحلام وعن أخبار الصالحين وكراماتهم، وعن الشفاء بطرق غريبة(٢). فقد حُدّث أسامة أن أحد الصالحين جاء من مكة ووصل إلى المعرة في اليوم التالي!!، وأخبر ضامن البستان بأن صاحبه قد مات بمكة بعد الانصراف من وقفة عرفة، وأنه شارك في الصلاة على جنازته، ثم تأكد هذا الخبر بعد ذلك!(٣) وروى له أحد الأمراء أن قيّم مسجد بظاهر الأنبار أصيب بمرض عضال، ثم رأى علياً (كرَّم الله وجهه) في نومه فبرئ من مرضه(٤).

وأخبر -أيضاً- أن امرأة جاءت إلى أحد الصالحين ببغداد - وكان ممن شهد في صداقها - فأعلمته بأنها فقدت كتاب مهرها، وطلبت منه الحضور للشهادة في مجلس الحكم، فطلب منها أن تحضر من بيتها قرطاس الحلاوة، فأحضرته، فأخذ القرطاس، وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس، ثم نظر فرأى فيه كتاب صداق المرأة المفقود، فأعطاه للمرأة قائلا: «هذي صداقك، فهذا هو، فاستعظم من حضره ذلك»(٥).

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٨٦.

(٢) المصدر السابق: ١٦٩-١٨٧.

(٣) المصدر السابق: ص١٧٢-١٧٣.

(٤) المصدر السابق: ص١٧٣-١٧٤.

(٥) المصدر السابق: ص١٧٠.

وروى علي بن ظافر[1] أنه عندما رغب في الاستقالة من خدمة الملك الأشرف الأيوبي ألحّ في هذا الطلب كثيراً، ولكنه لم يوفق في ذلك وأخيراً رأى أحد أهل العلم والخير من أصدقائه في منامه أن رغبة ابن ظافر قد تحققت وأخبره بذلك، «فلم يكن شيء أسرع من عود الملك الأشرف - أبقاه الله - من دمشق وانفصالي من خدمته على الوجه الجميل...»[2].

ومما يؤخذ على أخبار كرامات الأولياء ومناقبهم، وحكايات الرؤى والأحلام التي رواها أسامة وغيره، أنهم نقلوها كما سمعوها، دون تحقيق أو مناقشة وكأنها كلها صحيحة جرياً على سنّة كتاب عصرهم الذين لم يضعوا مثل هذه الحكايات موضع البحث والتحقيق والمناقشة.

---

(١) هو جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي: ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧هـ، وعندما كبر صحب الملك الأشرف موسى بن الملك العادل الذي ملك شمال الشام والعراق، ووزر له ثم تبرم بالوزارة، واستقال منها، وعاد من الرها إلى موطنه بالقاهرة وبقي فيها حتى وفاته سنة ٦١٣هـ وله مؤلفات عديدة منها: أساس السياسة، وأخبار الدولة السلجوقية، وأخبار الشجعان، وبدائع البدائه، وكتاب التشبيهات، واخبار الدول المنقطعة، وذيل كتاب بدائع البدائه، وكتاب من أصيب ممن اسمه علي، وكتاب مكرمات الكتاب (ياقوت: معجم الأدباء: ج١٣: ص٢٦٤-٢٦٧).

(٢) علي بن ظافر الأزدي: بدائع البدائه: ص١٠٤.

ب- صورة المجتمع الفرنجي

على الرغم من أن أدباء هذا العصر لم يفهموا لغات الفرنج الذين كانوا «لا يتكلمون إلا بالإفرنجي»[١]، إلا أنهم «سجلوا ما رأوه، وما سمعوه عن طريق التراجمة»[٢]، وعن طريق احتكاكهم بالفرنج في أوقات الحروب، واختلاطهم بهم، ومعاشرتهم لبعضهم في أيام السلم والهدن، فصوروا لنا جوانب عديدة من حياتهم العامة، كمعتقداتهم واحتفائهم بأعيادهم، وقضائهم، وتخلف طبّهم، وسذاجتهم، وقلة غيرتهم على أعراضهم وفجورهم، وجفاء طباعهم، وتأثرهم بالحضارة الإسلامية.

فقد تبرأ الكتاب من عقيدتهم الدينية لأنهم يؤمنون بأن السيد المسيح – عليه السلام – هو ابن الله، إذ يروي أسامة بن منقذ أنه رأى «واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين[٣] –رحمه الله– وهو في الصخرة[٤]، فقال: «تريد تبصر الله صغيراً؟»[٥]، قال: «نعم»، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح – عليه السلام – صغير في حجرها، فقال: «هذا الله صغير» – تعالى الله عمّا يقول الكافرون علوا كبيرا»[٦] وهم يعظمون رجال دينهم والبطرك «عندهم أعظم شأناً من ملكهم»[٧] «وهو عندهم كالإمام الذي للمسلمين لا يخالف أمره»[٨]، وهم يحسنون الاعتقاد برجال الدين، فكانوا يصطحبونهم في جيوشهم تبركاً بهم، فعندما غزا الفرنج دمشق سنة ٥٤٣هـ «كان معهم قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به»[٩].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ٦٦.

(٢) عبد القادر أبو شريفة: صورة الصليبيين في الأدب العربي: ص ١٦٥.

(٣) هو معين الدين أنر.

(٤) الصخرة المشرفة في بيت المقدس.

(٥) صوابه: صغيرا.

(٦) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٣٥.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢١١.

(٨) ابن الأثير: الكامل: ج٩: ص١٢٧.

(٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨: ق١: ص١٩٨.

وعندما مرض أحد فرسانهم وأشرف على الموت جاءوا إلى قس كبير من قسوسهم، وطلبوا منه معالجته – مع أنه يجهل الطب – لأنهم يعتقدون «أنه إذا حط يده عليه عوفي»[١].

وهم يعتقدون بقدسية بيت المقدس، ويسترخصون أرواحهم في سبيل الإبقاء عليه في أيديهم، وهم «يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون عليهم البيت المقدس، إذ هو بيت معبودهم، ومحل تجسد ناسوتهم –كما زعموا – بلاهوتهم، وفيه قمامة التي يدعونها القيامة، ومحل ضلالتهم، وقبلة جهالتهم، وفيها زعموا أن المسيح – عليه السلام – دفن بعد الصلب، وقام بعد ثلاث من القبر، وصعد إلى السماء...»[٢]. وهم يعتقدون – أيضاً – أن النور ينزل من السماء في اليوم الذي يليه يوم فصحهم[٣].

وكانوا يحرصون على إقامة الكنائس، لتأدية شعائرهم الدينية، فشادوا في المدن كنائس كبيرة تأنقوا في بنائها، وحرصوا على تزيينها بالصور والتماثيل، فكانت مثار إعجاب الأدباء، ومن ذلك وصف العماد الكاتب للكنيسة التي بنوها فوق الصخرة حيث يقول« ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ولا مطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعجيل والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبة....»[٤].

وحين خرج عسكرهم لحصار بانياس، ومعه البطرك نصبوا خيمة كبيرة جعلوها «كنيسة يصلون فيها»[٥].

وكانوا يحرصون على زيارة أماكنهم المقدسة في مواسم محددة، كما كانوا

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢١١.

(٣) المصدر السابق: ج٢: ص ٢٣١.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١١٣.

(٥) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٨٦.

يجتمعون في كنائسهم المقامة عند قبور بعض الأنبياء، لقراءة كتابهم وصلواتهم، فقد روى أسامة بن منقذ أنه عندما زار قبر يحيى بن زكريا – عليهما السلام – بقرية سبسطية[1]، ودخل إلى كنيسة في ساحة القبر شاهد فيها نحواً من «عشرة شيوخ رؤوسهم كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجة على قدر صدر الرجل منهم، وهم معتمدون عليها، وشيخ بين أيديهم يقرأ»[2].

وصوَّر الناثرون بعض مظاهر احتفائهم بالأعياد، فوصف ابن جبير احتفالهم بعيد حلَّ عليهم – وهم مسافرون – فاجتمعوا في المركب «واحتفلوا له بإسراج الشمع وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيراً او كبيراً، ذكراً أو أنثى من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة، وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة»[3].

كما كانوا يحتفلون في أعيادهم بالاجتماع في ميدان كبير يلعب فيه الفرسان بالرماح، ويجرون سباقاً بين عجوزين هرمتين للسخرية منهما، وقد وصف أسامة ذلك قائلاً: «حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح، وقد خرج معهما عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة، وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحدة منهن[4] سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن[5] على كل خطوة، وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة

---

(١) بلدة من اعمال نابلس بفلسطين، وبها قبر زكريا، وقبر يحيى بن زكريا عليهما السلام وجماعة من الأنبياء (معجم البلدان: ج٣: ص١٨٤).

(٢) اسامة بن منقذ: العصا: ص٣٢٦.

(٣) رحلة ابن جبير: ص ٢٨٦.

(٤) الصواب: منهما.

(٥) الصواب: والعجوزان تقومان وتقعان.

منهن[1]. فأخذت ذلك الخنزير في سبقها»[2].

وكان المجتمع الصليبي – آنذاك – يجل الفروسية، لأن العصر عصر حروب، فكان الملك يكلف الفرسان الحكم في القضايا المهمة، فالإفرنج – كما يقول – أسامة: «ما فيهم فضيلة من فضائل الناس، سوى الشجاعة، ولاعندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلاّ للفرسان، فهم أصحاب الرأي والقضاء والحكم»[3]. فإذا حكموا في قضية «ما يقدر الملك، ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغيره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم».

وكانوا يعجبون بالفرسان الأشداء، ولو كانوا من أعدائهم، فقد سُرَّ ملك الفرنج كثيرا عندما قابله أسامة بن منقذ، وخلع عليه عندما علم أنه فارس مشهور[4].

وقضاؤهم متخلف، وأحكامهم غاشمة لا تقوم على دليل، فهم يأخذون بالشبهة والظنة، فيجرون للمتهم عملية تغطيس في الماء، فإن رسب فهو بريء، وإن طفا ثبتت عليه التهمة، فقد روى أسامة أن شاباً مسلماً مقيماً بنابلس اتهم بالاحتيال على حجاج الفرنج، والتعاون مع أمه على قتلهم، فأجروا عليه حكم الفرنج: «جلسوا بتية عظيمة، وملأوها ماء، وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا في كتافه[5] حبلاً ورموه في البتية – فان كان بريئاً غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء – فحرص ذلك لما رموه في أن يغوص، فما قدر، فوجب عليه حكمهم – لعنهم الله – فكحلوه»[6].

---

(١) الصواب: منهما.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٨.

(٣) المصدر السابق: ص٦٤.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٦٤، ٦٥.

(٥) صوابه: في كتفيه.

(٦) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٩ – ١٤٠.

وشهد أسامة – أيضاً – في نابلس اثنين أحضرا للمبارزة لأن لصوصاً من المسلمين أغاروا على ضيعة من ضياع نابلس، فاتهموا رجلاً من الفلاحين بأنه هو الذي أرشد اللصوص إلى الضيعة، فطلب هذا الفلاح الشيخ من الملك أن يبارز من اتهمه بذلك، فاستأجر المدعي حداداً لينوب عنه في المبارزة، فالتقى الاثنان على الحلبة، وأعطى شحنة البلد «كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة، والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر عنه حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطال الأمر بينهما. والبسكند[1] يستعلجهما، وهو يقول بالعجلة، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة، وأعيى ذلك الشيخ، فضربه الحداد، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله، فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجروه شنقوه، وجاء صاحب الحداد وأعطاه غفارته وأركبه خلفه، وأخذه وانصرف».

وقد استولى على أسامة شعور عميق مؤلم لقسوة هؤلاء المغيرين ووحشيتهم فقال ساخراً: «وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله»[2].

وروى ابن شداد –أيضاً– محاكمة لأحد كبرائهم اتهم بضرب غلامه ضرباً تجاوز فيه الحد، «فاجتمعت القسوس للحكم، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه»[3].

ونقل لنا أسامة صوراً سخر فيها من عجائب طبّهم المتخلف، فقد طلب صاحب المنيطرة[4] الفرنجي من عم أسامة إرسال طبيب ليداوي بعض المرضى من

---

(١) Viscount (فيليب حتي: الاعتبار: ص١٣٩).

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٨ – ١٣٩.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١٢٦.

(٤) حصن بالشام قريب من طرابلس (ياقوت: معجم البلدان: ج٥: ص ٢١٧).

أصحابه « فأرسل له طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: (أي أسامة وعمه) ما أسرع ما داويت المرضى!، قال: أحضروا عندي فارساً طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف[1]، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي، فقال لهم: هذا ما يعرف شي[2] يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجلٍ واحدة، قال: أحضروا لي فارساً قوياً ، وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس – وأنا حاضر – فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها، فضربه – وأنا أراه – ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها. فحلقوه وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل. فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ الموسى، وشق رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلي حاجة؟. قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!! »[3].

ومن ذلك – أيضاً – ما رواه أسامة على لسان صاحب طبرية الفرنجي إذ قال: « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر، فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا. قلنا: تجيء معنا تبصر الفارس فلاناً؟ قال: نعم ومشى معنا، ونحن نتحقق أنه اذا حطّ يده عليه عوفي، فلما رآه قال: أعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. فقلنا له: قد مات، قال نعم، كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح »[4].

---

(١) نشاف: لعلها فارسيه بمعنى البله: (فيليب حتي: الاعتبار: ص١٣٣).

(٢) عامية: والصواب: شيئا.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٣٢–١٣٣.

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٧–١٣٨.

وسخر بعض الناثرين من سذاجتهم، فقد روى أسامة أن الفرنج عسكروا على بانياس في جمع كثير، ومعهم البطرك «وقد ضرب البطرك خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها، يتولى خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش، فكثرت البراغيث، فوقع لذلك الشماس أن يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث، فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها، وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً. فهذا لم يحضره العقل»[1].

وكانت مراسيم الزواج عندهم تتم بحضور البطرك أو القسيسين والرجال والنساء، كما يحضرها جمع كبير من الفرسان إن كانت للزوجة مكانة خاصة، وقد قدم ابن جبير مشهداً حياً لعرس إفرنجي حضره عند ميناء صور، فقال: «... ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى، رجالا ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنهما من ذوي أرحامها، وهي في أبهى زي وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليها وحللها، تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس، ويرفلن في أرفل الحلى، والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة»[2]. ثم عقب على هذا المشهد بالاستعاذة بالله من الافتتان بهذا المنظر الزخرفي الجميل[3].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٨٦.

(٢) رحلة ابن جبير: ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٧٩.

ولكن لم يتم التآلف في الزواج بين الفرنج والمسلمين غالباً، فهذا صاحب قلعة جعبر[١]، قد تزوج من امرأة إفرنجية، فأنجبت له ولدا تولى أمر جعبر من بعده، ولكن هذه المرأة ظلت تتحين الفرصة حتى تمكنت من الهرب إلى بلدة يحكمها الفرنج، وتزوجت من إفرنجي إسكاف[٢].

وعندما عرض ريتشارد قلب الأسد أخته على الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي شريطة أن يتنازل صلاح الدين لأخيه عن القدس وغيرها، وأن يتنازل هو لأخته عن مناطق الساحل، رفضت أخته هذا العرض «وغضبت بسببه، وأنكرت ذلك إنكاراً عظيماً، وحلفت بدينها، المغلظ من يمينها، أنها لا تفعل ذلك»[٣]، واستنكر الفرنج ذلك أيضاً[٤]. وكان الزواج يتم – أحياناً – بين الفرنج وبين النصارى من أهل البلاد الأصليين، وقد تحدرت عن هذا الزواج ذرية جديدة عرفت بـ (البولاني)[٥].

وفي وقتنا الحاضر تدل تقاليد بعض الأسر في بلاد الشام، وأسماؤها على أصلها الإفرنجي (الأوروبي) منها: فرنجية (Frankish)، وصليبي (Crusading) وبردويل (Baldwin) وصوايا (Savoi) وغيرها[٦].

وسخر بعض الأدباء من قلة غيرة الفرنج على أعراضهم، فنقل لنا أسامة صوراً من ذلك فقال: «وليس عندهم (أي الفرنج) شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى».

---

(١) جعبر: تقع على نهر الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص١٤١– ١٤٢).

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٠.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٩٦.

(٤) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥٥٦.

(٥) (Poulains): ومعناها الأحداث الصغار.

(٦) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين: ج٢: ص ٢٥٨.

وروى أنه – عندما زار نابلس – وجد أحدهم رجلاً مع امرأته في الفراش، فقال له: «أي شيء أدخلك عند امرأتي؟! قال: كنت تعبان، دخلت أستريح. قال: فكيف دخلت إلى فراشي؟! . قال: وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه. قال والمرأة نائمة معك؟! قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟!. قال: وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت!». فعلق أسامة على ذلك ساخراً: «فكان هذا مبلغ نكيره، ومبلغ غيرته!!»[1].

وروى – أيضاً – أن إفرنجياً آخر اصطحب ابنته لتستحم مع الرجال، وأن ثالثاً أتى بامرأته إلى الحمام، ليحلق عانتها.

ويعجب أسامة لهؤلاء القوم فيقول: «فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلاّ من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة»[2].

وقدّم النثر صوراً للمرأة الإفرنجية تدل على الانطلاق والانفلات، والاستهانة بالعشرة الزوجية، فهي تخرج من بيتها دون إذن زوجها، وقد تتركه وتتزوج زوجاً آخر إذا أحبته، فهذه زوجة ملك الفرنج بالشام أحبت رجلاً من الفرنج الذين قدموا من أوروبا حديثاً فتزوجته، ونقلت إليه الملك[3].

وقد لا تعتد الزوجة – عندهم – بعد موت زوجها فتتزوج بعد موته مباشرة، أو بعد أيام قليلة حتى لو كانت حاملاً، وفي ذلك يقول العماد عن الكندهري بأنه «دخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته، وادعى أنه أحق بزوجته» ويعلق على هذا العمل الشنيع قائلاً: «فما منع الحمل من نكاحها، وذلك أفظع من سفاحها»[4].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) المصدر السابق: الاعتبار: ص١٣٦-١٣٧ .

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج ١٠: ص١٤١ .

(٤) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥٩ .

ويقول في زواج أخرى: «وقيل إنها كانت حبلى، ولم تخرج من حبالة الحبل، فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل»[1].

ترك معظم رجال الفرنج أسرهم في أوطانهم، واندفعوا باتجاه الأراضي المقدسة تلبية لنداء الكنيسة، وصحب هذا الاندفاع انفلات الجند من آداب المجتمع، وميلهم إلى الانغماس في اللذائذ الحسية ليسروا بها عن أنفسهم آلام هذه الحروب الطاحنة وعذاباتها، فاستشرى الفساد بين المحاربين الإفرنج.

وانتدبت أوروبا مجموعات من الشابات الحسان لإشباع رغبات أولئك الجند، معتقدات بأن عملهن هذا هو أفضل قربى إلى الله – جلَّ وعلا – فقد وصلت في مركب –كما يقول العماد –: «ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة، قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء... وإنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان...»[2]. وليس عندهم «على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج»[3].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنشئت في بعض مدنهم دور وخيام خاصة بالنساء الساقطات، ووصف العماد ذلك قائلا: «وتفرّدن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب، وفتحن أبواب الملاذ...»[4]. فهرب إليهن بعض مماليك المسلمين ومدابيرهم، فمنهم من أحس بالندم – بعد ذلك – فتاب وعاد إلى المسلمين، ومنهم من بقي غارقاً في اللذة والذلة لدى الفرنج، وفي ذلك يقول العماد الكاتب: «وأبق من المماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء، جماعة جدّ بهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٤٩٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٤٧.

(٣) المصدر السابق: ص٣٤٩.

(٤) المصدر السابق: ص ٣٤٧.

بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة فتحيل النقلة ....»[١].

ووصف الناثرون الفرنج بجفاء الأخلاق، وقسوة القلوب - كما رأينا في محاكماتهم الظالمة - وكلما قرب عهدهم ببلادهم الأصلية، كانوا أشد جفاء، وأقسى قلوباً من الذين عاشروا المسلمين في بلاد الشام، وتأثروا بهم، فقد وصفهم أسامة قائلاً: «وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين تبلدوا، وعاشروا المسلمين»[٢].

ومع ذلك، فقد كان الفرنج يعتزون بأنفسهم، ويثقون بشجاعتهم، وبرجاحة عقولهم، فقد روى أسامة أنه كان في عسكر ملك الفرنج «فارس محتشم قد وصل من بلادهم يحج ويعود فأنس بي وصار ملازمي يدعوني أخي وبيننا المودة والمعاشرة، فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده، قال لي: يا أخي أنا سائر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي ابنك - وكان ابني[٣] معي، وهو ابن أربع عشرة سنة - إلى بلادي يبصر الفرسان، ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل».

فتعجب أسامة من هذا العرض الذي يشف عن ضعف عقله قائلاً: «فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج»[٤].

وتأثر الفرنج بالمسلمين نتيجة احتكاكهم بهم في بلاد الشام في الحرب والسلم، فأقبل بعضهم على تعلم اللغة العربية والتأثر بالحضارة الإسلامية لإحساسهم - آنذاك - بتفوق المسلمين الحضاري عليهم[٥].

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٣٤٨.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٤.

(٣) أبو الفوارس مرهف بن أسامة المتوفي سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) وكان والده مشغوفاً به (ابن شاكر: فوات الوفيات: ج٤: ص١٢٤).

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٢.

(٥) عبد الكريم الأشتر: صفحة من تراثنا الحي: ص١٠٠-١١٧: مجلة المجمع العلمي بدمشق: ج١٠، المجلد: ٤٢.

فقد أورد أسامة أمثلة عديدة تدل على معرفة بعضهم بالعربية، منها: محاولة تبرير الفرنجي له إدخال ابنته معه إلى حمام الرجال بقوله: «هذه ابنتي، ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي إلى الحمام غسلت رأسها»(١).

وإن بعض فرسان الفرنج سألوا بوّاب مدينة شيزر عن اسم تلك المدينة قائلين: «أي شيء اسم هذا البلد؟»(٢).

ولم يقتصر تعلم العربية والتأثر بالثقافة الإسلامية على عامة الفرنج، بل تعلمها - أيضاً - بعض كتاب الدواوين لديهم، وبعض أمرائهم وملوكهم. فقد ذكر ابن جبير أنه عندما زار عكا كان كتاب الديوان فيها «يكتبون بالعربية، ويتكلمون بها»(٣).

وذكر ابن شداد أن صاحب قلعة الشقيف «وكان من كبار الإفرنجية وعقلائها، وكان يعرف العربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث»(٤)، وكان - كما يقول ابن شداد - أيضاً - «يتردد إلى خدمة السلطان (صلاح الدين) في كل وقت، ويناظرنا في ديننا، ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة ومتأدباً في كلامه»(٥).

وعندما زار فردريك الثاني الصخرة المشرفة - بعد تنازل الكامل الأيوبي له عن القدس - سأل قوامها عدة أسئلة باللغة العربية(٦).

وكان تعصب الفرنج شديداً لدينهم ومعتقداتهم، فلم يقبلوا على الإسلام إلا

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص٥٦.

(٣) رحلة ابن جبير: ٢٧٥.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٩٧.

(٥) المصدر السابق: ص٩٨.

(٦) مفرج الكروب: ج٤: ص٢٤٤-٢٤٥.

نادراً فلم يسلم من أسرى معركة حطين -كما يقول العماد-: «إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين غرامهم»(١).

كما هرب خادمان لأخت ملك الانجليز - آنذاك - والتحقا بالمسلمين وأعلنا إسلامهما. وكانا من قبل «يكتمان إيمانهما في سر الضمير....»(٢).

وكان بعض أسرى الفرنج يتظاهرون بالاسلام، وحين تسنح لهم الفرصة يهربون إلى بلاد الفرنج، ويرتدون عن الاسلام، ووصف أسامة أحد هؤلاء قائلاً: «وكان في أولئك (الأسرى من الفرنج) الذين صاروا إلى دار والدي، امرأة عجوز ومعها بنت لها امرأة شابة حسنة الخلقة، وابن مشتدّ، فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يرى من صلاته وصومه، وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي. فلما طال مقامه زوّجه الوالد بامرأة من قوم صالحين، وقام بكل ما احتاجه لعرسه وبيته، فرزق منها بولدين وكبرا، وصار لكل واحد منهما خمس، ست سنين. والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما، فأخذهما وأمهما وما في بيته، وأصبح بأفامية عند الإفرنج، وتنصر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين»(٣).

واستطاب بعضهم أطعمة المسلمين، فعزفوا عن أكل لحم الخنزير، واستعانوا بالطاهيات المصريات لطهو أطعمتهم على طريقة المسلمين، فقد روى أسامة أن أحد الفرنج القدامى الذين كانوا بأنطاكية أحضر لضيفه المسلم مائدة حسنة، وطعاماً في غاية النظافة والجودة، وعندما رآه متوقفا عن الأكل، قال له: «كل طيب النفس، فأنا ما آكل طعام الفرنج، ولي طباخات مصريات، ما آكل إلاّ من طبيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير»(٤).

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٨٠.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٤٩٣.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٠-١٣١.

(٤) المصدر السابق: ص١٤٠.

ج- الموضوعات الأخرى

على الرغم من طغيان الموضوعات العامة السياسية والاجتماعية على نثر هذا العصر إلاّ أن الناثرين لم يغفلوا الموضوعات الأخرى الخاصة بهم، والتي تعبّر عمّا يجول في أذهانهم من أفكار وما يجيش في صدورهم من عواطف ذاتية. فشارك الكُتّاب الشعراء في تناول الموضوعات الخاصة، وكتبوا في المديح، والهجاء، والرثاء، والغزل، والخمر، والمجون والوصف، والمراسلات الإخوانية، والكبر، والمشيب والشكوى، والتذمر، والطرائف والنكات، وغير ذلك.

المديح:

مدح الناثرون الخلفاء والسلاطين والملوك والوزراء والأصدقاء، كما مدحوا بعض البلدان والمدن أيضاً، وأشاد الناثرون في مدحهم بمناقب ممدوحيهم فوصفوهم بالسيادة والجود وسداد الرأي، ومضاء العزيمة، وحسن الأحدوثة، وكرم الأصل، وإقامة العدل، وحفظ الدين، فقد كان الكتاب يضمنون مقدمة رسائلهم الموجهة الى الخليفة ببغداد الدعاء له، والثناء عليه ويسبغون عليه أفضل الصفات[1]، ومن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل في رسالة بعث بها إلى الخليفة العباسي على لسان صلاح الدين بمناسبة فتح بلد من بلاد النوبة، فقال: « .... وصلاة يتبعها تسليم، وكأس يمزجها تسنيم، وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى، ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى على مولانا الامام « المستضيء بالله » المستضاء بأنواره، المستضاف بداره، الداعي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، الراعي للخلق كما يرعى النسيم النسيم، العام فضله، التام عدله، المطروق مورد فنائه، المصدوق في مورد ثنائه، المحقوق من كل ولي بولائه، ابن السادة الغر، والقادة الزّهر، والذادة الحمس، والشّادة للحق على الأسّ، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب، والموصول الأنساب يوم إذا نفخ في الصور فلا أنساب، والصابرون على حساب أنفسهم فهم

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٤٨٩-٥٢٠.

الذين يؤتون أجرهم بغير حساب »[١].

ومدح الكتاب سلاطين عصرهم وأشادوا بفضائلهم، ولا سيما من أبلى في جهاد الفرنج بلاء حسنا مثل عماد الدين زنكي ونورالدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين الأيوبي: « .... والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه، والجواد الذي لم ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع، ومن إنعامه في ربيع مريع، ومن عدله في أنوار تكشف عن ظلم المظالم، وتكف بسطة المعتدي الغاشم، ومن دولته القاهرة في ظل وارف، وفي سعود متتابع آنف في أثر سالف، ما تعاقب الليل والنهار، ودار الفلك الدوار.... »[٢].

وقول القاضي الفاضل في مدح الأيوبيين والإشادة بكرمهم وشجاعتهم: « .. وقد كان يقال: إن الذهب الإبريز لا تدخل عليه آفة، وإن يد الدهر البخيلة به كافة، وأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال، كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال[٣]، فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم، وقلدتم أيامه صوارم، ووهبتم شموسه دنانير وأقماره دراهم، وأيام دولتكم أعراس، وكان ما تمّ على المال منها مآتم، والجود في أيديكم خاتم، ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم[٤] ».

ومدح بعض الكتّاب بعض الوزراء، فأشادوا بمكانتهم في الدولة، ومجدهم في الناس، وسعيهم للمعالي والمكارم، ومن ذلك ما كتبه ضياء الدين بن الأثير في مدح أحد الوزراء على لسان أمير آبق فقال: « أدام الله أيام مولانا الوزير الأعظم ولا زال أمره ظاهراً، وحكمه آمراً، وسلطانه قادراً، ولسان مدحه شاعراً، وذكر مجده في الناس

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٦٥.

(٣) وردت في الأصل « كما أن سيوفها أيه نفوس الأبطال »، ولعل الصواب من حيث المعنى ما ذكرت.

(٤) ابن نباته المصري: مطلع الفوائد: ص٤٥٠.

سائراً، وسعيه للمعالي ناظماً، وجوده للعطايا ناثراً، ولا برحت أم الأيام عن مثله عاقراً، وبعيدات المطالب قريبة لديه حتى يكون مستقبلاً حاضراً....»[1].

كما مدح بعض الكتاب بعض أصدقائهم ضمن رسائلهم، فدعوا -غالباً- في مقدمة رسائلهم للصديق بطول البقاء، وقرب اللقاء، ودوام الارتقاء، والسلامة، والكرم، والمجد، والحمد له، والقرب من الله، وطهارة القلب واللسان والكف في أفعاله، ومن ذلك قول ضياء الدين بن الأثير في كتاب كتبه إلى أحد أصدقائه: «أطال الله بقاء المجلس السامي الفلاني، ويسر لقاءه، وأدام ارتقاءه، وجعل الزمان وقاءه، والمكارم أرقاءه، ولا زال مجده وقفاً، وحمده عرفاً، وولاؤه عند الله زلفى، وأفعاله طاهرة قلباً ولساناً وكفاً....»[2].

وشاع في هذا العصر مديح البلدان والمدن ومن ذلك إشادة القاضي محيي الدين بن زكي الدين[3] بمناقب بيت المقدس في خطبته المشهورة بمناسبة فتح بيت المقدس[4].

وقول ابن شكر[5] في مدح مدينة دمشق: «.. دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعرس السفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود، ومقامها المحدود، وماؤها المسكوب، وعيبها

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٢٩.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص١٤١ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) هو محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد، كان أديباً وفقيهاً، وقد تولى القضاء بدمشق وكانت له عند صلاح الدين منزلة سامية وله خطب ورسائل، ونظم حسن، وقد توفي سنة ٥٩٨هـ (وفيات الأعيان: ج٤: ص٢٢٩-٢٣٧).

(٤) ابن واصل مفرج الكروب: ج٢: ص٢٢١-٢٢٢.

(٥) هو أبو محمد صفي الدين عبدالله بن علي بن عبدالخالق بن شكر، كان وزيرا مهيباً وعالماً مشهوراً، توفي بالقاهرة سنة ٦٢١هـ وكانت بينه وبين القاضي الفاضل وحشة (أبو شامة: ذيل الروضتين: ص١٤٧، وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨: ص٤٧٢-٤٧٣، وفوات الوفيات: ج٢: ص١٩٣-١٩٥، والنعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: ج١: ص٩٢، وسير أعلام النبلاء: ج٢١: ص٣٤١).

المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل، وقد شرفها الله تعالى بالذكر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المبين: ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ »[1].

وإشادة ضياء الدين بن الأثير بمصر وآثارها، قائلاً: « .. والنفس معلقة بمصر، فإني لم أقم بها شيئا يمتع ناظري، ولا يذهب وعثاء سفري.... ولقد شاهدت منها بلداً يشهد بفضله على البلاد، ووجدته على الحقيقة هو المصر وما عداه فهو السواد، فما رآه راء إلاّ ملأ عينه وصدره، ولا وصفه واصف إلاّ علم أنه لم يقدره قدره، وبه من عجائب الآثار ما يضبط بالعيان فضلا عن الأخبار، فمن ذلك الهرمان اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان.. »[2].

التعريض والذم:

هجا بعض الكتاب خصومهم من الأشخاص والأقوام، كما تناولوا في هجائهم وذمهم بعض المدن والبلدان.

ومن ذلك قول ابن الأثير في ذم بخيل ملأه طمعاً بوعوده الخادعة، ثم لم يحظ منه بطائل،.... « .... ولم أر كمواهب فلان ملأت أملي بطمع وعودها، وفرغت يدي من نيل جودها، فلم أحظ إلاّ بلامع سرابها، وكانت كدم القميص في كذابها.... »[3].

وقال – أيضاً – معرضاً بغلام أبله، كان يقاسي من بلهه نكدا، فقدمه في صورة ساخرة، إذ كان يغلب عليه النسيان، فهو في يقظته كأنه نائم، وهو بهيمة

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٥٩. والآية رقم (٥٠) سورة «المؤمنون».

(٢) رسائل ابن الأثير: ص١١٤-١١٥ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ابن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٧٣.

في صورة إنسان، «فما أرسل في حاجة إلاّ ذهبت عن قلبه يمنة ويسرة، ولا طلب منه ما استحفظه إلاّ قال: «أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة»[1].

وقال الوهراني في التعريض بأمير بخيل: وهو «.. الذي جفانه أضيق من أجفانه، وقدره أصغر من قدره، وليس في بيته للطارق غير السماء والطارق، ولا يقدم للمنتاب غير التقريع والعتاب، ولا يمد للنزيل غير العرض الهزيل، وإذا أفلح قدم من تصحيف الخبز ملء زجاجة، ومدية يذبح بها ألف دجاجة، وملأ له الخوان من لحوم الإخوان....»[2].

وقال ابن الأثير في ذم النسب «.... لهم نسب لا تدخله لام التعريف، وهو موضوع لا يجري على سنن التوقيف، فإذا ذكر أوله، وقفت من عرفانه على طلل، ووجدته مهملاً في جملة الهمل، وإن قيل: إنه من نجوم السماء، قلت: لكنه لا يخرج عن الثور أو الحمل، فما أرهف لوصفه لسان إلاّ نبا، ولا اقتدح له زناد خاطر إلاّ كبا، وهم منه كآوى الذي يرى الناس له ابناً، ولا يرون لابنه أبا»[3].

وقال القاضي الفاضل في ذم مدينة دمشق: «.. وماذا يقول في بلد لو صحت الحمية من مائه، لكانت أكثر من أسباب صحة المحتمي وشفائه، فإن ماءه يؤكل، وبقية الأمواه تشرب، ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب....»[4].

وقال ابن الأثير في ذم أرض الخابور: «.. وذاك أني سرت على أرض الخابور، وهو نهر ذو غُدُر وشجر، لا يجد ماؤه مس البرد، ولا يروي وارده على كثرة الورد. فالحميم مستمد من شرابه، وطينة الجبال مخلوقة من ترابه، ومن صفاته أنه منبع الوخم، ومنبت السقم، وكل تربة منه تضرب من ألم، وإذا رأيت أهله، قلت: أحياء في صورة

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٨٧، والآية رقم (٦٣) من سورة الكهف.

(٢) منامات الوهراني: ص١٧٣.

(٣) ابن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٥٥.

(٤) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص ١٥١-١٥٢.

الأموات، قد منوا بدقة الرقاب، وعظم البطون، وضعف الأصوات....»[1].

المراثي والتعازي:

أنشأ الادباء كتباً في الرثاء والتعازي أبّنوا فيها الرجال المشهورين من حكام، أو وزراء أو قضاة أو علماء أو غيرهم، كما رثوا أحيانا الديار المتهدمة والأهل الهالكين.

والتعازي «مختلفة الأنحاء، فتعازي النساء غير تعازي الرجال، وهي من مستصعبات فن الكتابة والشعر، وتعازي الرّجال - أيضاً - تختلف، فلا يعزى بالميت على فراشه، كما يعزى بالميت قتيلاً، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق، وهكذا يجري الحكم في المعاني جميعها، وهذا شيء لا يتنبه له إلاّ الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم»[2].

وباستثناء رثاء أبطال الجهاد، فإن كثيراً من كتب التعازي التي وصلت إلينا جاءت في كتب ورسائل ضياء الدين بن الاثير[3].

ومن هذه التعازي ما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين الأيوبي إلى ابن أخيه عز الدين فرخشاه[4] ناعياً له والده نجم الدين أيوب، ومعزياً له فيه، وداعياً له بالرحمة والمغفرة، ومعرباً عن شدة حزنه لوفاته في غيبته، ومبيناً عظمة الرزء فيه، فقال: «.. صح من المصاب بالمولى الدارج، غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعة، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص ١١١ (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٤٧-٤٨.

(٣) رسائل ابن الأثير: ص١٨٦ - ١٨٧، ١٩١ - ١٩٣، ٢١٣ - ٢١٨، ٢٣٧ - ٢٣٨، ٢٩٠ - ٢٩٢، ٢٩٣-٢٩٥، ٣٠٥-٣٠٧، ٣٢٢-٣٢٣ (تحقيق المقدسي)، ورسائل ابن الأثير: ص٨٣-٨٨ (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) هو ابن شاهنشاه بن أيوب، تولى بعلبك، وناب مدة بدمشق عن عمه صلاح الدين، وتوفي سنة ٥٧٨هـ (ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ج٤: ص٢٦٢-٢٦٣).

الحسرة، فاستنجدنا الصبر فأبى، وانحدرت العبرة، فيا له فقيداً فقد عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتشر شمل البركة بفقده فهي بعد الاجتماع أجزاء....»[1].

وكتب ضياء الدين بن الأثير كثيراً من الرسائل في التعزية إلى أهله[2] وأصدقائه[3]، وللخلفاء، والملوك والأمراء، والوزراء والقضاة[4] وغيرهم بوفاة من فقدوه من ذويهم.

فعندما فجع ضياء الدين بوفاة أخيه الأكبر مجد الدين المبارك[5] الذي كان يكنُّ له محبةً واحتراماً عميقين كتب الى والده جواباً عن كتابه الذي يخبره فيه بوفاته يفيض بالحزن والأسى، وهو من أجود ما كتب في رثاء الإخوان، فقال: «... وصل كتاب مجلس المولى حرس الله من الحوادث جنابه، وحفظ عليه أعزته وأحبابه، وأجزل على هذه المصيبة ثوابه، ولا لقي بعدها ما يسيء به ظناً، ولا يقرع سناً، ولا يحمل به على الذهر ضغناً، وجعل بقاءه عوضاً يأسو كل كلم، ويرأب كل ثلم، ويحل عقدة كل هم، فوقفت عليه، وألفيته مخبراً بوفاة الأخ فلان، مهَّد الله له إلى الجنة طريقاً، وجعله للرفيق الأعلى رفيقاً، فعمي طرفي عن نظره، وصم سمعي عن خبره، ووقف لساني فلم يمض بقراءة أسطره، وزاد ما بي

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٣٤.

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٨٥-٨٧ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) رسائل ابن الأثير: ص ٢١٣-٢١٥، ٢١٥-٢١٦، ٢٣٧-٢٣٨ (تحقيق المقدسي).

(٤) رسائل ابن الأثير: ص١٩١ - ١٩٣، ٢١٦ - ٢١٩، ٢٣٩ - ٢٤٠، ٢٩٠ - ٢٩٢، ٢٩٣ - ٢٩٥، ٣٠٥-٣٠٧، ٣٢٢-٣٢٣ (تحقيق المقدسي)، ورسائل ابن الأثير: ص٨٧-٨٨ (تحقيق القيسي وناجي).

(٥) هو أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، الموصلي المعروف بابن الأثير، ولد سنة ٥٤٤هـ بجزيرة ابن عمر وسمع الحديث بها وببغداد، ثم انتقل إلى الموصل، ومن مؤلفاته البديع في النحو، وجامع الأصول في أحاديث الرسول (ﷺ)، وكتاب غريب الحديث، وشرح مسند الإمام الشافعي، توفي سنة ٦٠٦هـ (ياقوت: معجم الأدباء: ج١٧: ص٧١-٧٧).

كثرة الآمرين بالصبر والتسليم، ولئن علمت أن ذلك أجدى عليَّ، فربَّ علمٍ لا ينتفع به العليم، ولقد بكيته حتى أرقت كل عينٍ شحيحة، وأعديت بدائي كل كبدٍ صحيحة.... »[١].

وقد تركت وفاة مجد الدين بن الأثير صدى كبيراً عند بعض مشاهير عصره، فكتبوا إلى ضياء الدين معزين بوفاته[٢]، وقد ردَّ ضياء الدين على هذه الرسائل برسائل موثرة[٣].

وكتب ضياء الدين بن الأثير رسالة إلى الديوان العزيز ببغداد معزياً بوفاة الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد[٤]، وكان بين موتهما تسعة أشهر، فصوَّر فيها عظم هذه الرزية لأنها أعقبت رزيّة كبرى سابقة، إذ فجع الإسلام في وقت قصير بوفاة خليفة إثر خليفة، فنكئ جرح المسلمين السابق بجرح لاحق.... فقال: « .... ومما عظم الرزيّة أنه أتى عقيب رزء وصل فجعة بفجعة، وقد كان يستهول أحدهما وهو وتر فشفع الوتر فيه بشفعه، فيا ويح الإسلام فجع أولاً بناصره، وفجع الآن بظاهره، وقرب الوقت بينهما حتى كاد يعثر أوله بآخره. فلم تفق النفوس من برحائها إلاّ وافت ما طوى مضضها على مضض، ووقع ذلك منها موقع نكبة عطفت على مرض، ونكء القرح بالقرح أوجع، وذهاب فرع العلياء بعد أصله ذهاب بالعلياء أجمع.... »[٥].

ثم هنأ الخليفة الجديد المستنصر بالله[٦] بالخلافة، وأعطاه البيعة، وقدّم له

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٨٥–٨٧ (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص٢٣٩–٢٤٠، ٢٦٤–٢٦٦، ٢٣٩، ٢٦٥ (تحقيق المقدسي).

(٣) المصدر السابق: ص٢٣٩، ٢٦٥.

(٤) هو الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله محمد بن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، ولي الخلافة لمدة تسعة أشهر فقط، وقد جمع الخشوع لربه والعدل والإحسان إلى الرعية، وقد توفي في سنة ٦٢٣هـ (ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٦٤).

(٥) رسائل ابن الأثير: ص١٨٦ (تحقيق المقدسي).

(٦) هو الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله محمد ولي الخلافة سنة ٦٢٣هـ بعد وفاة أبيه، وقد سلك إلى الخير في الناس سيرة أبيه (ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٦٥).

الطاعة نيابة عن مرسله، فقال: « . . وما كان الله ليسوء دينه بمصاب خليفتين، ولا يجلو ظلمته بصباح سافر، وقد جاء بسيدنا ومولانا المستنصر بالله أمير المؤمنين، فأرضى كل قلب سخط ولم يرض... والعبد قائم بهذا المقام، وقلبه مقتسم للعزاء شطراً، وللهناء شطراً، فإذا نطق بهذا أسبل دمعاً، واذا نطق بذا أبدى ثغراً، وهو نائب عن مرسله في أخذ البيعة التي يد الله فوقها.... وكذلك فإن العبد ينهي طاعة مرسله الذي جعل يومه منها كأمسه....»[1].

ولم يقف الناثرون عند رثاء الأشخاص بل رثى ابن الأثير الديار الدارسة[2].

وعندما ضربت الزلازل شيزر سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م)، وذهبت بجميع من كان فيها من بني منقذ، وعفت على ديارهم، صكّت هذه الأنباء المفجعة مسمعي أسامة بن منقذ، وارتاع لهذا المصاب المروع، فذهب إلى شيزر، ووقف على منازل قومه، وقد دثر عمرانها، وهلك سكانها، فبهت متحيراً من هذا البلاء العظيم، ثم انصرف عنها والحزن يملأ نفسه، وقد صوَّر هذا المشهد المفجع قائلاً: « . . ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها، وهي أول أرض مسَّ جلدي ترابها، فما عرفت داري، ولا دور والدي وإخوتي، ولا دور أعمامي، وبني عمي وأسرتي، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه، وانتزاع ما خوَّله من نعمائه:

ثم انصرفت فلا أبثك خيبتي رعش القوام أميس ميس الأصور[3]

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع وتتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضلوع، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان، بل كان هلاكهم أجمع، كارتداد الطرف أو أسرع...»[4].

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٨٦-١٨٧ (تحقيق المقدسي).

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٥٩-١٦٠.

(٣) الصور: الميل، (وأصور) نعت منه (اللسان: مادة: صور).

(٤) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج١: ص٣-٤.

ثم توالت النكبات على أسامة منذ ذلك الحين، فحاول أن يسري عن نفسه الملتاعة بتأليف كتاب سماه «المنازل والديار» جمع فيه كثيراً مما قالته العرب في بكاء الديار والأحباب فضلاً عمّا نظمه هو نفسه في هذا الموضوع، وقد وصف ذلك قائلاً: «... فإني دعاني إلى جمع هذا الكتاب، ما نال بلادي وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جرَّ عليها ذيله، وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله،(١) فأصبحت كأن لم تغن بالأمس، موحشة العرصات بعد الأنس، قد دثر عمرانها، وهلك سكانها، فعادت مغانيها رسوماً، والمسرات بها حسرات وهموماً.. ثم استمرت النكبات تترى من ذلك الحين، وهلم جرا، فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب، وجعلته بكاء للديار والأحباب، وذلك لا يفيد ولا يجدي، ولكنه مبلغ جهدي، وإلى الله عزَّ وجل أشكو ما لقيت من زماني، وانفرادي من أهلي وإخواني، واغترابي عن بلادي وأوطاني...»(٢).

الغزل

حاول بعض الناثرين اقتحام موضوع الغزل، ومشاركة الشعر فيه، وأكثر النثر الغزلي الذي وصلنا من هذا العصر جاء في رسائل أو في فقرة، أو فقرات قصيرة. ومن ذلك قول ضياء الدين بن الأثير في وصف نساء حسان أقبلن مائسات في ثياب خضراء كأنهن الأغصان: «أقبلت ربائب الكناس في مخضر اللباس، فقيل: إنما يخترن الخضرة من الألوان ليصح تشبيههن بالأغصان»(٣).

وحاول ابن الأثير في رقعة كلفه أحد أصدقائه كتابتها وإملاءها عليه، وهي من عاشق إلى معشوق أن ينهج فيها منهج الغزل العذري العفيف (أو المتعفف)، فهو لا يسمي محبوبه خوفاً من الوشاة، وقد عرف هذا المحبوب مكانته في قلبه فتمادى في دلّه عليه، وجار في إذلاله له، وفي صده عنه، ثم يحذر محبوبه من

---

(١) الحول: القوة وكذلك الحيل يقال: لا حيل ولا قوة، لغة في حول (اللسان: مادة: حول).

(٢) أسامة بن منقذ: المنازل والديار: ج١: ص٣-٤.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص١٧.

أن العشق قد يزول بجنايات الصدود، ثم يطالبه بوصاله زكاة عن حسنه وجماله، وهذه الزكاة يجب أن تكون متواصلة لا تنتظر أن يحول الحول لأدائها وهي مقصورة على أسير الحب دون الفئات الأخرى التي تستحق زكاة المال فقال: «... يا من لا أسميه ولا أكنيه، وأذكر غيره وهو الذي أعنيه، لا تكن ممن أوتي ملكاً فلم ينظر في زواله، وعرف مكانه من القلوب فجار في إدلاله، لا تغتر بقول من رأى الحسن للإساءة ماحياً، واعلم أنّ اللاحي يقول الزيادة في الحد نقصان في المحدود.... وقد قيل إنّ الحسن عليه زكاة كزكاة المال، وليست زكاته عند علماء المحبة إلاّ عبارة عن الوصال، وهذه صدقة تقسم على أربابها ولا ينتظر أن يحول الحول في إيجابها، فهي مستمرة على تجدد الأيام، والمستحقون لها قسم واحد، ولا يقال: إنهم ثمانية أقسام، وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب، ورتبه العشق أشد أسراً من رقبة تتحرر بالكتاب، فأخرج يا مولاي من الحق الواجب، وإلاّ فتأت لطالب مُنى ومطالب....»[1].

ويبدو التكلف واضحاً في هذا الغزل، فقد طغى عليه الحجاج العقلي والفقهي وتوارت فيه العاطفة المشبوبة الصادقة لأن الأديب لم يعبّر عن تجربة صادقة في الحب، بل تكلف ذلك للتعبير عن مشاعر غيره.

الغزل بالمذكر

يرجع الغزل بالمذكر الى عصر أبي نواس «إلاّ أنّ الشعراء الذين قالوا في هذا الباب كانوا ممن عرفوا بالخلاعة والمجون، أمّا في عصر الحروب الصليبية، فرأينا رجالاً وسموا بالتقوى والورع يكثرون من الغزل بالمذكر....»[2].

وأرجّح أنّ معظم هذا الغزل الغلماني كان تقليداً للسابقين، وكان يقال بقصد التندر والإطراف والسير على سنن السابقين من الشعراء.

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص٤٤ ـ ٤٥.

(٢) محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام: ص٤٠.

وقد راعى الناثرون في غزلهم بالمذكر معظم المقاييس الجمالية في الأدب العربي عند الحديث عن المرأة، ومن مظاهر هذا الجمال: لين العطف، وارتجاج الأرداف، والخصر النحيل، والثغر النقي، والقوام الممشوق المائس، والوجه المنير كالبدر، والشعر الفاحم كالليل، والطرف المكحول، ومن ذلك قول علي بن ظافر الأزدي متغزلاً بصبي: «.. وكان يجلس بالقرب من مكاننا صبي وضيء، نهب وجهه وشعره من البدر نوره، ومن الليل ديجوره، واغتصب طرفه من الظبي كحله، ومن الغصن تميله....»(١).

ووصف الأمير يغمر بن عيسى في رسالة له غلاماً فقال: «... فلمّا اطمأن بنا المكان وساعد الزمان والإمكان، جاء غلام، حسن القوام، عذب الكلام، كأنه بدر التمام، ومصباح الظلام، إذا رنا فالربيب(٢) ينظر من عينيه، والقضيب يهتز من عطفيه قد كمل حسنه وخلقه، وحسن زيّه وخلقه....، فلم نلبث حتى أقبل غلام أحسن من الأول وصفاً، وأكمل رشاقةً وظرفاً.... قد تحلى بالجمال، وتردى بالكمال، سكران من خمرتي صبا ودلال، يتمايل كأنه غصن عبثت بعطفيه ريحا صبا وشمال....»(٣).

الخمر والمجون

تحدث الناثرون عن الخمر تقليداً، ووصف آخرون مجالس اللهو والشراب، وما كان يجري فيها من خلاعة ومجون، فصوروا بذلك حياة فئة عابثة لاهية من فئات المجتمع – آنذاك – فقد وصف ضياء الدين بن الأثير الخمر ومجالسها في العديد من رسائله(٤)، ومن ذلك قوله في وصفها: «مُدامة تنفي خواطر الهموم،

---

(١) ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائه: ص١٨٧.

(٢) الربيب: الصبي، والفرس، وابن الزوجة، واللفظة لا تساعد المعنى ولعلها الربرب: وهو القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والأنسي، لا واحد له (ج) ربارب (اللسان: مادة: ربب).

(٣) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٥٨-٣٥٩.

(٤) رسائل ابن الأثير: ص١١٦-١١٧، ١٦٢-١٦٣، ١٧٢، ٢٤٥-٢٤٨ وغيرها (تحقيق المقدسي).

وتسري مسرى الأرواح في الجسوم، وتشهد بأن الكرم مستمد من ماء الكروم، ويتمثل حببها نجوماً إلاّ أنها مضلّة، والهداية للنجوم»[1].

ووصفها الأمير يغمر بن عيسى في رسالة له، فقال: «.... راح لا يلوذ النصب بساحتها، ولا يكدر التعب صفو راحتها، ولا يحل الحزن بدارها، ولا يطفيء الماء ضوء نارها، بكر ما أيمت، ومرة حلت لما حرمت، كلما عتقت زادت جدة، وإذا كسرت بالمزج ازدادت حدة، قد قصر عن وصفها الواصفون، وحار في إدراك نعتها العارفون....»[2]، ثم قدم مشهداً حياً لمجلس شراب ولهو، وصف فيه ما يتصل به من خمر وكؤوس وورود وأزهار، وموسيقى وغناء وسقاه، فاللذائذ الحسية يستدعي بعضها بعضاً، فقال: «.... فأدخلنا مجلساً صغر عندنا ما رأيناه، وأنسانا كل ما رويناه... قد أطلعت بدر الكمال سماؤه، وأبرزت نجوم الإقبال أفناؤه، وحف بالنّور والنُور، والورد والمنثور، ونضّد بالزهر والريحان، بين الحور والولدان ، بكؤوس مدام كالأرجوان، بين اتفاق أوتار، واختلاف ألحان، وهم يسكرون بكاستهم[3] قبل كاساتهم، وبسوالفهم لا بسلافاتهم، فناول كل واحد رطلاً، فلم يترك أحداً منّا عطلاً.. ونحن ما بين قيام وقعود، واشتمام رائحة ند وعود، الى أن أخذت الراح منّا بعض حقها، وصرنا في قبضتها وتحت رقها وتقضى أكثر النهار، ولاح علينا دلائل الفرار[4]، وهدأت منا النزوة، وبان فينا الفتور والنبوة، ومالت الرؤوس طيباً وطرباً، وارتاحت النفوس عُجباً وعَجباً فحينئذ قرَّ لنا القرار، واطمأنت بنا الدار، فتذاكرنا الأخبار، وتناشدنا الأشعار، فقام فينا سيد القوم خطيباً، وأوسعنا لوماً وتثريباً... ونادى

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٥٠.

(٢) العماد الكاتب: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٦٠.

(٣) لعل الصواب بكياستهم: والكياسة: الظرف، والخفة والتوقد، والعقل (اللسان: مادة: كيس) والسوالف: جمع سالفة: وهي جانب العنق (اللسان: مادة: سلف)، والسلافة: والسلاف: أفضل الخمر وأخلصها (اللسان: مادة: سلف).

(٤) لعلها الغرار: القليل من النوم (اللسان: مادة: غرر).

بلسان قد أطلقته النشوة، وأعتقلته القهوة: يا إخوتي اشتغلوا بالعقار، عن إنشاد الأشعار، وبسماع الأوتار، عن اتباع الأوتار؛ وبالإصغاء الى الألحان، عن البكاء على من نفد عمره وحان، وتأملوا بدوراً يحملون شموساً، ويجلون لديكم عروساً، ويديرون لديكم خندريساً، ويغادرون رسم العقل بها دريساً، ويحيون بقتلها مزجاً مهجاً ونفوساً، إن أقبلوا فالبدور متجلية، وإن انثنوا فالغصون مائلة مستوية، وانظروا شعوراً زينها التجعيد، وخدوداً طرزها التوريد، وعيوناً صحتها السقام، ويقظتها المنام، ونظرتها الحمام، ولحاظها السهام، وأصداغاً مبلبلة، وقدوداً معتدلة، وأفواهاً ضمنت مسكاً وكافوراً ودراً ومداماً، وشفاهاً ضمنت شفاء وطيباً ومداماً...»[1].

ومع ذلك لم ينس بعض الأدباء ذمها وتعداد مساوئها، ومن ذلك قول ضياء الدين بن الأثير: «.. والخمر لا تفي لذة إسكارها إلاّ بتنغيص خمارها، فهي خرقاء البيان، بذيئة اللسان، وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان، وقد عرف منها سنة الجور في أحكامها، ولولا ذلك لما استأثرت من الرؤوس بجناية أقدامها....»[2].

الوصف

تبوأ الوصف منزلة رفيعة لدى بعض الناثرين، فقد وصفوا معظم ما وقعت عليه أبصارهم، وما أدركته حواسهم في بيئتهم، فقد وصفوا الطبيعة في شتى مظاهرها، كما وصفوا ما ابتدعه الإنسان فيها، وبرعوا في ذلك.

وصف الطبيعة:

منح الله بلاد الشام ومصر طبيعة جميلة، فشغف أهلها بجمالها، وأخذوا يسرحون النظر في الجبال الخضراء والسهول اليانعة التي تجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنانها الأطيار، فوصف الأدباء طبيعة تلك البلاد من حقول

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٦٠-٣٦٣.

(٢) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص١٥٠.

ورياض وأشجار وثمار وورود وأزهار، وسحب وأمطار وثلوج وغيرها.

وقد أجاد بعض الناثرين مثل ابن الأثير، ويغمر بن عيسى في وصف الطبيعة بل فاقوا كثيراً من الشعراء في جمال صورهم وسعة أخيلتهم، وفي استيفائهم صور المرئيات وجمعهم بين الصور المتباعدة، وعنايتهم بالألوان، كما أسبغوا الحياة على موصوفاتهم، وتمثلوها كائنات حية تحس وتنطق، ومن ذلك وصف ابن الأثير لمسيره في فصل الشتاء من حصن سميساط[1] الى صاحب الروم، قائلاً: « .... إنه سار عن الخدمة في يوم ضرب الغيث فيه مضاربه، وأسبل عليه ذوائبه، وجعل كل ربوة حفيراً، وكل قرارة غديراً، وخط بكل أرض خطاً، وغادر كل جانب شطاً، ثم استمر المملوك في مسيره يقاسي الأرض ووحلها، والسماء ووبلها، ولقد جاد حتى أكثر، وواصل حتى أضجر، وأسرف حتى التحق بره بالعقوق، وما كان المملوك ليخاف لمع البوارق كما يخاف لمع البروق، فلم يزل من مواقع نظره في حرب، ومن شدة برده في كرب....»[2].

ووصف ابن الأثير بستاناً في زمن الربيع بقوله: « .. ومن محاسنه (أي ذلك اليوم) أنه كان في إبان الربيع.... والشمس تكشف لنا عن بعض وجهها وتستره، والسحاب يمطرنا تارة ورذاذاً أكثره، وقد ضمتنا حديقة أعاليها لجين وعقيان، وأدانيها من ديباج خسرواني ومن عصب يمان، ويحيط بها نهر لا يأخذ في التوائه، وكأنه قدح في استوائه، وهو يبدي من رونق صقاله عن متون صوارم، ومن تباذير حببه عن بطون أراقم، وعلى شواطيه طير تطرب بهديرها وهديلها، وتهزأ بألحان الأغاني في ثقيل أولها وثاني ثقيلها، ومن ألطف أوصافها أنها ترجع ترجيع الشجي، ولا ترى منها إلاّ خليا، وتتطفل بغنائها ولم ير قبلها مغنٍ طفيليا، ومنها صنف قد ألهى برقوم ثيابه عن طيب ألحانه، وشابه الربيع في نقط

---

(١) سميساط: مدينة على شاطيء الفرات، ولها قلعة حصينة (ياقوت: معجم البلدان: ج٣: ص٢٥٨).

(٢) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٠٤.

حبب ألوانه، فلو رقص مكان من الطرب، لأخذ مكاننا في الرقص.... »[١].

ووصف ابن الأثير – أيضاً – الثمار كالمشمش والتفاح والعنب والرمان والتين وتمرات النخيل، وغيرها[٢]. ومن ذلك قوله في وصف المشمش: «ففيها المشمش الذي يسبق غيره بقدومه، ويقذف أيدي الجانين بنجومه، فهو يسمو بطيب الفرع والنجار[٣]، ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار[٤]، وله زمن الربيع الذي هو أعدل الأزمان، وقد شبّه بسن الصبا في الأسنان»[٥] وقال في وصف التفاح: « .. وفيها التفاح الذي رق جلده، وعظم قده، وتورد خده، وطابت أنفاسه، فلا بان الوادي ولا رنده[٦]، وإذا نظر إليه وجد منه حظ الشم والنظر، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر»[٧].

ووصف الأدباء – أيضاً – ما صنعه الإنسان وأنشأه من قصور وبرك ونوافير وغيرها، ومن ذلك قول الأمير يغمر بن عيسى: « .. وانتهينا منه إلى قصر قصرت عن نعته الهمم، وصغرت عنده إرم، شاهق البناء، رائق الفناء، فائق الأرجاء، فاستدللنا بالظاهر على الباطن، وبحسن المسكون على إحسان الساكن، فيه بركة قد حركت راؤها، وفي وسطها فوارة قد ارتفع الى السماء ماؤها، كأنها رمح قد طعن به في نحر السحاب، فجاد عليها بواكف الرباب، قد أديرت بأكواب وأباريق، مملوءة من سلسبيل ورحيق.... »[٨].

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٤٧.

(٢) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٧٠-٣٧١.

(٣) النجار: بكسر النون وضمها والنجر – أيضاً – بفتح النون: الأصل والحسب (اللسان: مادة: نجر).

(٤) النضار: الذهب او الفضة، والمعنى الأول هو المناسب هنا (اللسان: مادة نضر).

(٥) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢ ص٣٧٠، ورسائل ابن الأثير: ص١٨٩ (تحقيق المقدسي).

(٦) الرند: شجر طيب الرائحة يستاك به، واحدته رندة (اللسان: مادة: رند).

(٧) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٣٧٠، ورسائل ابن الأثير: ص١٨٩-١٩٠ (تحقيق المقدسي).

(٨) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٣٨٨.

كما وصفوا لعبة الشطرنج[1] ورمي البندق[2]، والقلم[3]، والشمعة[4] وغيرها.

الشكوى والتذمر

وصف الأدباء تغير حالهم، وتنقل الدنيا بهم من حال اليسر والجاه إلى حال العسر والجفوة والإهمال، فقد وصف الأمير أسامة بن منقذ سوء حاله بعدما خرج من مصر مع الوزير عباس بن أبي ألفتوح الصنهاجي بعد الثورة عليه، فقال: « . . . وسرنا وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي، فسبحان من لا يزول ملكه، وسرنا وما مع أحد منّا كف زاد، وإذا أردت أن أشرب ماء ترجلت شربت بيدي، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا علي ستة عشر جملاً روايا، وما شاء الله سبحانه من القرب والسطائح . . . .»[5].

ووصف العماد الكاتب ما آلت اليه حاله بعد وفاة نور الدين محمود، فقال: « . . ولما توفي نور الدين – رحمه الله – اختل أمري، واعتل سري، وغاض بحري، وغلب حسّادي، وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك الصالح صغيراً، فصار ابن العجمي[6] وزيراً. وتصرف المخالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرفوا، ونقصوا وزادوا، واقتصروا بي على الكتابة، محروم الدعوة من الإجابة، فمشيت أمرهم على عرج، وتجلدت على كربهم منتظراً فرج . . . .»[7].

---

(١) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٤٨-١٤٩ (تحقيق هلال ناجي).

(٢) ابن الأثير: المثل السائر: ق٢: ص٥٤-٥٥.

(٣) ابن الأثير الوشي المرقوم: ص١٠٢، ١٧٠، ١٧٩، ٢٠١.

(٤) رسائل ابن الأثير: ص٩١-٩٢، ٩٦-٩٧ وغيرها. (تحقيق انيس المقدسي)، وابن الأثير: الوشي المرقوم: ص١٠٨.

(٥) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢٦، والسطائح: جمع سطيحة، وهي المزادة تكون من جلدين (اللسان: مادة: سطح).

(٦) أبو صالح العدل بن العجمي وزير الملك الصالح بن الملك العادل نور الدين محمود قتل سنة ٥٧٣هـ (البرق الشامي: ج٣: ص٥٠-٥٣).

(٧) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٣٦.

ثم علت مكانته كثيراً في زمن صلاح الدين، وبعد وفاته تولى ضياء الدين ابن الأثير الوزارة للملك الأفضل علي بن صلاح الدين، فساءت سيرته، وانتقص من شأن كبار رجال الدولة في عصر صلاح الدين مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وغيرهما، وحط من قدر الأفاضل، وتوقف عن قضاء حوائجهم، فساءت أحوالهم، وقد وصف العماد الكاتب حاله - آنذاك - قائلاً: « . . ولما نقله الله الكريم (يعني صلاح الدين) الى جنان جناته، واقتسم أولاده ممالكه، قلت: يسلكوا مسالكه، وينسكوا مناسكه، وإنهم يعرفون مقداري، ويرفعون مناري، ويشرحون صدري، ولا يضعون قدري، فأخلف الظن حتى قطعوا رسومي، ومنعوا مرسومي، وغوروا منابعي، وكدروا مشارعي . . . . »[1].

وكتب الوهراني إلى صلاح الدين شاكياً سوء حاله، وقد أقبل العيد، فقال: « . . . ومملوكه الأصغر أمدح من حسان لملوك غسان، وأشكر من الأزهار لجداول الأنهار، وأحوج من الظلماء لمصابيح السماء، فما باله - أدام الله ظله - يتوانى عن عبده، ويتوقف في رفده، وقد أضرَّ به البوس، وأعوزه الملبوس، وقد هجم العيد، وهو لا يبدي ولا يعيد . . . . »[2].

الكبر والمشيب

شعر بعض الكتاب بوطأة الكبر عليهم، عندما تقدمت بهم السن، إذ ثقلت أرجلهم، وضعفت قواهم، وغزا الشيب رؤوسهم، واضطروا الى حمل العصي في أيديهم، فوصفوا ما آلت اليه أحوالهم، وتحسروا على شبابهم الداثر، فقال أسامة بن منقذ في ذلك: « . . . لم أدر أن داء الكبر عام، يعدي كل من أغفله الحمام، فلمّا توقلت ذروة التسعين، وأبلاني مَرُّ الأيام والسنين، صرت كالجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسّرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:

---

(١) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص١٤.

(٢) منامات الوهراني: ص٢٠٠.

لما بلغت من الحياة الى مدى قد كنت أهواه تمنيت الردى»[1]

وقال ابن الأثير يصف حاله بعد أن تقدمت به السن: «.. لم يتأخر كتابي عنه إلاّ لأنه يمشي مشي مرسله، أو مشي قلمه ومقوله، وكلاهما قد استبدل من جماحه بالحران، ولربما تعدى شيب الرأس إلى القلم واللسان، وقد قيل إنّ الشيب حلّة من غير خُلة، ومن يجاوز السبعين اشتكى من غير علّة، وكفى بالصحة داء لمن طالت مدة عمره، وبالراحة تعباً لمن لزم وكره، فيقل عليه التردد الى وكره، وقد أصبحت وليس لي أرب في أرب، ولا أعد في نبع ولا غرب[2]، فكل أحوالي قد آلت من عجب الى عجب، فالعصا في يدي أدعم بها قدمي وأهش بها على سنين كثيرة من عمري لا على غنمي، فهي لقوس ظهري وتر، ولمبتدأ ضعفي خبر، وإذا كان في إلقائها طمأنينة مقام، ففي حملها إنذار بسفر، وما أقول إلاّ أنها رجل ثالثة لكنها تثبط عن الانبعاث، وفي ضروب الحيوان ما يمشي على أربع وليس فيها ما يمشي على ثلاث، فها أنا لا يمضي علي يوم ولا ليلة إلاّ والروح تتردد من جسدي في منازل أدراس، وعهدي به لا يؤثر فيه مرور أعوام، فأصبح وهو يؤثر فيه مرور الأنفاس»[3].

ولم يقف الكتاب في وصف الكبر والمشيب عند وصفه في فقرات، أو ضمن الرسائل، بل ألّف أسامة بن منقذ لأبيه كتاب «الشيب والشباب»[4] الذي جمع فيه كثيراً مما قيل في الشيب والشباب والكبر[5].

الطرائف والنكات

ذكر الناثرون في كتبهم ورسائلهم – آنذاك – بعض الطرائف والنوادر التي

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٦٠-١٦١.

(٢) النبع والغرب: نوعان من الشجر تعمل منهما السهام: الأول صلب والثاني ضعيف. أي أصبحت لا أعد في شيء (اللسان: مادتا: نبع، وغرب).

(٣) رسائل ابن الأثير: ص١٢٢-١٢٣. (تحقيق المقدسي).

(٤) أسامة بن منقذ: لباب الآداب: ص٣٧٧.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء: ج٥: ص٢٠٨.

شاهدوها أو سمعوها، أو صنعها خيالهم، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ عن عجائب طبّ الإفرنج وقضائهم، وخلوهم من الغيرة على العرض[١].

ومن ذلك - أيضاً - ما ذكره أسامة من أنه حضر عند بعض القضاة رجل يشكو امرأته، وأنها ضربته ضرباً مبرحاً، وكسرت عليه عصا، ومزقت ثيابه، فأطرق القاضي مفكراً كالمهموم، فقال له الرجل: «لا يغمك الله يا سيدنا القاضي، فهذا شيء قد ألفته من سوء عشرتها، وقلة أدبها، فقال له القاضي: والله ما أنا مغتماً لضربها إياك ولو قتلتك، وإنما غمّي أن تظن أنّ الرجال كلهم مثلك»[٢].

وما كتبه أحد المدابير الى أمه: «.. فإني ما أفلحت عندك ولا ها هنا، دخلت القيروان بكرة، واشتهيت أخذ الولاية ضحوة، وتزوج بنت السلطان عشية، فلم تساعدني المقادير، فرجعت الى سوق البز أبيع وأشتري، أبيع ثيابي وأشتري الخبز إلى أن نفدت البضاعة، فلزمت المساجد في أوقات الصلوات أسرق لوالك المصلين، وأرهنها عند اليهود الخمارين، على النبيذ في المواخير، طيبي قلبك من جهتي، وإن قيل لك عني إني مدبر فلا تصدقي!»[٣].

وأنشأ أسعد بن مماتي[٤] نوعاً آخر من النوادر ابتدعه ابتداعاً وقصد به الانتقام من الأمير المجاهد بهاء الدين قراقوش نائب صلاح الدين بمصر[٥]، عن

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٣٢-١٤١.

(٢) أسامة بن منقذ: العصا: ص٣٤٠.

(٣) منامات الوهراني: ص٢٠٧، اللوالك: لم أجدها ولعلها عامية أو معربة، وتدلّ على نوع من الأحذية الخفيفة.

(٤) كان ناظر الدواوين بمصر، ومن الأدباء المعروفين - آنذاك -، وأصله من نصارى أسيوط ثم أسلم والده وأبناؤه، وقد توفي بحلب سنة ٦٠٦هـ، وله مصنفات كثيرة، وديوان شعر (الخريدة: قسم شعراء مصر: ج١: ص١٠٠).

(٥) هو أبو سعيد بهاء الدين قراقوش بن عبدالله الأسدي، نسبه الى مولاه أسد الدين شيركوه، خدم صلاح الدين، وناب عنه في بعض المناسبات وأشرف على بناء القلعة والسور، وقناطر الجيزة، ثم تولى أمور عكا بعد فتحها وسورها، وأسره الفرنج ثم افتدي وأطلق سراحه، ثم توفي سنة ٥٩٧هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص٩١).

طريق التشنيع عليه والسخرية منه بما نسبه اليه من طرائف وحكايات عجيبة تدل على غبائه وسخفه، وجمعها في كتاب سماه «الفاشوش في أحكام قراقوش» ومنها أنّ قراقوش نشر قميصه على الحبل، فوقع القميص من على الحبل، فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم، وقال: لو كنت لابساً هذا القميص وقت وقوعه لانكسرت![1].

ومنها أنّ جندياً نزل في مركب، وكان به فلاح وزوجته، وكانت الزوجة حاملاً في سبعة أشهر وضربها الجندي فأسقطت، فذهب الفلاح إلى الأمير بهاء الدين قراقوش وشكا إليه الجندي «فقال الأمير بهاء الدين للجندي: خذ زوجة الفلاح عندك وأطعمها وأسقها، حتى تصير في سبعة أشهر، ثم أعدها الى زوجها، فقال الفلاح: يا مولاي تركت أجري على الله، وأخذ زوجته وذهب»[2].

ومنها أنّه كان بمصر رجل تاجر بخيل «وكان ولده يقترض على موته قدراً معلوماً، فزاد عليه الدين، ولم يمت والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة، فدخل هو والدائنون عليه، وغسّلوه وكفنوه ووضعوه في النعش وهو يصيح فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته، وهم يذكرون ويصيحون، فلمّا وصلوا للصلاة عليه، اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءني الفرج. فجلس في التابوت وقال: يا مولانا السلطان، خذ لي بحقي من ولدي هذا، فإنه يريد دفني بالحياة! فاتجه الأمير قراقوش الى الولد، وقال له: كيف تدفن والدك بالحياة؟!، فقال الولد: كذب عليك يا مولانا السلطان، ما غسلته إلاّ وهو ميت، ولا حملته على النعش إلاّ وهو ميت، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك، فقال: أتشهدون بذلك؟، فقالوا: نشهد بما قال الولد! فالتفت قراقوش للميت وقال: أأنا مجنون أصدقك وحدك،

---

(١) ابن مماتي: الفاشوش في حكم قراقوش: ص٢٠.

(٢) المصدر السابق: ص٢١.

وأكذب هؤلاء الحاضرين؟! رح اندفن بلا شفاعة لئلا تطمع فينا الموتى، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم، فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش!»[1].

وقد سار اسم «قراقوش» بسبب هذه النوادر في الآفاق، وتداولته ألسنة الناس فحرّفوه وقالوا «قراقوش» و«أراجوز»، وأطلقوه في معرض الاستهزاء واتخذوا نوعاً خاصاً من الألعاب دعوه «أراجوزاً»، وما زالوا حتى عصرنا الحاضر يعرضونه في بعض المسارح ويحركونه بشكل معين وينطقونه بالفكاهة والنكات، ويجرون على يديه حركات وأعمالاً تدل على البله والحمق، فيغرق الحاضرون في الضحك[2].

---

(١) ابن مماتي: الفاشوش في حكم قراقوش: ص٢٥.

(٢) محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي بمصر والشام: ص١٤١.